

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـــّـــة

تصــدر عن كليــة الآداب

العــــدد: التاسع والسبعون

السنـــة: التاسعة والأَربعون

الموصــــــــل

١٤٤١هـــ / ٢٠١٩م

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

الرمز الدولي : ISSN 0378- 2867

E ISSN 2664-2506

P ISSN 1813-0526

رقم إيداع المجلة في المكتبة الوطنية ببغداد : ١٤ لسنة ١٩٩٢

للتواصل: radab.mosuljournals.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية

باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: التاسع والسبعون — السنة: التاسعة والأَربعون

(تشرين الأوّل/ تشرين الثاني/ كانون الأَوَّل لسنة ٢٠١٩)

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد .
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة .

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

أدلة وجود الله عند توما الاكويني

دراسة نقدية مقارنة

م.م. هبا عبد الاله يونس *

تأريخ التقديم: ٢٠١٩/٧/١٧　　　　تأريخ القبول: ٢٠١٩/٨/١٩

المقدمة :

ان مسألة البرهنة على وجود كائن خارق وميتافيزيقي يرجع اليه الكون وكل المخلوقات مسألة اهتم بها العديد من الفلاسفة والمفكرين وذلك محاولة منهم لعقلنة الايمان واعطاءه صورة منطقية لا تتناقض مع العقل وهي مسألة لا تتعلق مباشرة بالحقل الروحي أو بالديانات بل هو موضوع يتعلق بالدراسات الفلسفية وبالميتافيزيقا بالذات موضوع يتعلق بالفلسفة لأنه يقوم على اللجوء الى العمليات العقلية المختلفة وذلك بتقديم الأدلة والبراهين واثبات وجود الكائن المسمى الله وهو في نفس الوقت موضوع يتعلق بالميتافيزيقا من حيث أن هذا الكائن موضوع التساؤل ، الله ليس كائنا ماديا وليس موضوعا للادراك الحسي ولا يمكننا رؤيته أو الحوار معه، وبذلك يخالف الفيلسوف توما الأكويني الدليل الأنطولوجي الذي جاء به من سبقوه الدليل الذي يحاول أن يبرهن عن الوجود ليس عن طريق جوهر الله ولا أن الله واجب الوجود في جوهره لأننا نعرف جوهر الله وانما عن طريق التأمل في فكرة الله كما هي في الذهن والتي لا تتكون الا بعد مجهود شاق وطويل وهي التي تقودنا في النهاية الى وجوده ومن هنا جاء رفض توما الأكويني للدليل الوجودي "الانطولوجي" للذين سبقوه للبرهنة على وجود الله (يوحنا الدمشقي – القديس أوغسطين – القديس أنسلم) وأهتم بدلا عنها بالأدلة الكونية التي تنطلق من المعطيات التجريبية وتنتهي باثبات وجود علة الوجود وواجب الوجود بذاته الله فوضع خمسة براهين (الحركة – العلة الفاعلة – الواجب والممكن – تفاوت الكمالات – النظام أو العلة الغائية) وتتميز جميعها بالاعتماد على مبدأين أساسين هما: العلية وعدم التسلسل

* قسم الفلسفة / كلية الآداب/ جامعة الموصل .

في العلل الى ما لانهاية ومن ثم الاستنباط الارتدادي أو التصاعدي وهو استدلال ميتافيزيقي ينتقل من المعلولات الحسية الى العلية المتعالية، فالفكر شيء والوجود شيء أخر فليس كل موجود أفكر فيه بالضرورة أن يكون موجودا وجودا عيانيا فليس كل فكر له مقابل عيني فالوجود العيني يختلف بالتأكيد عن الوجود الذهني والدليل على ذلك أننا كثيرا ما نتصور أشياء ونعلم بأشياء بل وقد نركب اشياء من أشياء في الذهن دون أن تتحقق هذه الأفكار والتصورات فقد يتخيل البعض نفسه ملكا أو سابحا فوق الماء أو صديقا لأحد نجوم المجتمع وكل هذه تصورات أي أفكار عقلية فحسب بعيدة كل البعد عن التحقق الفعلي الواقعي وتاتي أهمية البحث في عرضة المفصل لادلة توما الأكويني الكونية لاثبات وجود الله كما ورد في كتابه المجموعة الأهوتية الجزء الاول منها موضحا فيه خطأ بعض الأدلة في اثبات وجود الله خصوصا تلك التي تعتمد على التصور فلا يكون ما يتصوره الانسان موجودا بالضرورة سيتم عرضا مفصلا في البحث فمثل تلك التصورات مبنية في أساسها على الايمان لذلك اعتمد الأكويني براهين أخرى غير ان هذه الأدلة وان كانت قوية في العصر الذي طرحت فيه فانها لم تسلم من النقد من طرف اللاهوتين وعلماء الدين الذين ومنذ زمنه وحتى الأن يتناولولها درسا ونقدا ومعارضة لهذه الأدلة مستخدمة المنهج التحليلي والمقارن الذي فرضته طبيعة البحث ولأننا بصدد تحليل ومناقشة أدلة توما الأكويني لأثبات وجود الله اما عن صعوبة البحث فتكمن في ندرة المصادر التي تتحدث عن الموضوع فلم تجد الباحثة الا القليل والقليل جدا منها فضلا عن صعوبه تحميل كتب توما الأكويني وشراءها الكترونيا ولعل أهم ما يميز الفيلسوف توما الأكويني محاولته في مواجهة مشاكل عصره فكتب مما كتب الخلاصة اللاهوتية وفيها يبحث بالالهيات وأهم قضاياه ما يتعلق بوجود الله فنراه يتبع طرق العقل العلمية لاثبات وجود ما هو خارج الزمان والمكان أي خارج العقل وتصوراته وتكمن القيمة المنهجية والعلمية للبحث في بيان الفرق الحاسم بين موقف القديس توما وموقف الذين سبقوة في ادراكه أن الايمان ليس علما لميا وانه يعتمد العلم الاني في أسبابه أو علامات صدقه وان المعرفة الانسانية تبدأ من المنظور وترتقي بالعقل الى غير المنظور فلا يصح اعتبار المعرفة الايمانية شيئا أول ولكنها فائقة للطبيعة ومن ثمة زائدة على الطبيعة وأما عن هيكلية البحث فقد ضم مبحثين ولكل مبحث ثلاث مطالب المبحث الأول(سيرة توما

الأكويني الذاتية ودليله الأنطولوجي) والذي يتضمن ثلاثة مطالب: المطلب الأول: السيرة الذاتية والمؤلفات والمطلب الثاني يتحدث عن : الأصول الأرسطية للفلسفة اللاهوتية للأكويني والمطلب الثالث تضمن: الدليل الأنطولوجي عند توما الأكويني بينما ضم المبحث الثاني وهو بعنوان: (أدلة وجود الله بين توما الأكويني والفلاسفة) تخصص المطلب الأول: لشرح أدلة الأكويني في أثبات وجود الله والمطلب الثاني: وفيه بيان لاعتراضات القديس توما الأكويني لحجج الفلاسفة السابقة على وجود الله (يوحنا الدمشقي، القديس انسلم، القديس أوغسطين- نماذج مختارة) والمطلب الثالث: نقد الفلاسفة لطرق الاستدلال الكونية عند توما الأكويني وفي الآخير الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع المستخدمة في البحث.

المبحث الاول: سيرة توما الأكويني الذاتية ودليله الانطولوجي

المطلب الاول : السيرة الذاتية والمؤلفات

أولا : حياته : هو ابن كونت دى اكوينو بايطاليا الجنوبية ، تلقى العلم أولا في دير للبندكتيين ثم التحق في الرابعة عشرة بكلية الفنون بجامعة نابولي، وفي هذه المدينه، وبعد خمس سنين، دخل رهبنة الدومينيكان فأرسل في السنة التالية (١٢٤٥) الى باريس حيث تتلمذ لألبرت الاكبر ثلاث سنين، ثم رافقه الى كولونيا حيث كانت الرهبة أنشات معهدا عاليا ، وبعد أربع سنين عاد الى باريس كي يحضر لدرجة الاستأذية في اللاهوت، فأخذ يعلم بصفته حاصلا على البكالوريا ، فشرح الكتاب المقدس سنتين، وكتاب الأحكام سنتين، وبعد حصوله على الليسانس صار أستاذا وهو في الحادية والثلاثين، أي أربع سنين قبل السن المقررة بقانون الجامعة ، وقد أعفاه البابا من هذا القيد ، فاحتل أحد كرسيين مخصصين لرهبنته بالجامعة وعلم بهذه الصفة ثلاث سنين (١٢٥٦-١٢٥٩)

فشهد منه المستمعون طريقة جديدة، وبراهين جديدة ، وترتيبا جديدا للمسائل ، ونورا جديدا[١].

وأخيرا عاد الى ايطاليا لانشاء معهد عال جديد، فاختار نابولى مقرا له، واستأنف التعليم حتى كان السادس من ديسمبر (١٢٧٣) فاذا تغيير بالغ يعرض له أثناء القداس فينقطع عن التعليم وعن الكتابة والاملاء، فيسأل فى ذلك فيقول:" لقد أوحيت الى اشياء ما أرى كل ما كتبته الا كالهشيم بالقياس اليها"، ومن ذلك اليوم فرغ للعبادة وترك القسم الثالث من المجموعة اللاهوتية ناقصا، فأتمه رجنلد زمياه فى الرهبة وكاتبه مدة الخمس عشرة سنة الأخيرة آخذا عن كتبه الأخرى ودعاه البابا الى مجمع كنسى يعقد بليون فلبى الدعوة ولكنه مرض فى الطريق بين نابولى وروما، فلجأ الى دير بندكتى، وتوفي بعد شهر فكان لوفاته وقع شديد فى جميع أنحاء أوربا [٣].

وعقب موته ظهرت حركة تناوئ تعليمه ، وتسمى فلسفته بالتوماوية ، وتتهمه صراحة ، وتصدى أتباعه للرد عليها ، الا أن التوماوية زاد مشايعوها ، ومع ذلك وفي سنة (١٣١٨) أعلن البابا أن التوماوية منحة الهية[١] وأن مذهبه معجزة من المعجزات ، وأنه بمفرده يفيض على الكنيسة من النور أكثر من سأئر الأساتذه مجتمعين ، وبعد وقت قصير ، أي في عام (١٣٢٣) رسم توما قديسا ، وقد كان معاصروه يسمونه (العالم الملائكي)، وبالفعل كان القديس توما الأكويني، بالنسبة الى كنيسة روما رسولا ومعلما [٢]، ووجد الكاثوليك في التوماوية وقد صار هذا هو اسمها اسلحة فلسفية يحاربون بها

---

١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ، دار الكاتب المصري – القاهرة ، ط١، ١٩٤٦، ص ١٦٩.

٢) ميلاد زكى غالي ، وآخرون ، مشكلات فلسفية ، منشأة المعارف– الأسكندرية ،ط١ ، ١٩٩٩، ص١١– ١٢. ٣) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

١) موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج٣، عبد المنعم الحفني، مكتبة المدبولي – القاهرة ، ط٣، ٢٠١٠، ص١٧٧.

٢) ميلاد زكى غالي ، وآخرون ، مشكلات فلسفية ، ص ١٢.

الفلسفات الحديثة الالحادية واللاأدرية ، وخاصة كتابي الأكويني الكبيرين (الخلاصة في الرد على الامم) و(الخلاصة اللاهوتية)، وشروحه على الأسماء الالهية لديونسيوس المجهول ، وشروحه على كتب أرسطو، ويقال أن الاكويني طلب الى وليام الموربيكى مراجعة ترجمات أرسطو المتداولة ، وأن يزوده بترجمات جديدة لها متميزة عن اضافات كبار المفكرين العرب كأبن سينا وابن رشد ،الا انه نصر أرسطو ، أو كما البعض عمده ، وفي مدى اثنين وعشرين سنة استوفى الشرح على أرسطو ودمجه بالاهوت المسيحي ، وحدد الفروق بين الفلسفة واللاهوت(٣).

ثانيا: مؤلفاته : أهم مؤلفات توما الاكويني في عهد الشباب وأشهرها الشرح على كتاب الاقوال ثم كتاب الوجود والماهية ، ولكن مؤلفاته الرئيسية تنقسم الى ثلاثة أنواع : الشروح ، والخلاصات، والمسائل ، وأما الشروح فأشهرها الشروح على مؤلفات أرسطو بأكملها ، وفيها نجد توما شاعرا بطريقه ، يعرف الى اين يذهب ، وما الغرض من تفسيره ، وهنا يلاحظ أو هذا ما يقوله جلسون أن من الواجب أن نحتاط ونحن نقدر هذه التفاسير ، ذلك أنه يجب أن لايظن أن توما في تفسيره للنص بحسب هواه ، لم يكن شاعرا بأنه يفعل ذلك قصدا ، وانما الواقع أنه فعل ذلك عن عمد، ومن أجل تحقيق غرض وهو تكيف فلسفة أرسطو لكي تتفق والمسيحية(٤).

والى جانب هذه الشروح الأرسطية هناك مؤلفات فلسفية خاصة ، وربما يكون على راس هذه المؤلفات كتاب له أهمية خاصة وهو (في وحدة العقل ردا على الرشدين)، والكتاب كما هو واضح من العنوان يهاجم نظرية وحدة العقل كما جاءت عند الرشديين، اما كتابا (في الوجود والماهية) و(في مبادئ الطبيعة) فقد وضعهما عام (١٢٥٦) وتلاهما (في المبادئ الاساسية) عام (١٢٦٦) ثم (في قدم العالم) عام (١٢٧٠)، وان

---

٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة، مجموعة من الفلاسفة الانكليز : فؤاد كامل، وآخرون، مراجعة : زكي نجيب محمود ، دار القلم بيروت – لبنان ، (د.ط) ، (د.ت)، ص ٧١– ٧٢.

٤) عبد الرحمن بدوي ، فلسفة العصور الوسطى ، دار القلم بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٧٩، ص١٣١–١٣٢.

كان ستينبزجن في كتابه (الفلسفة في القرن الثالث عشر) ، يعتبر أنه قد انتهى من كتابته عام (١٢٧١) ، ثم تلى ذلك (في العوامل الخفية للطبيعة)، و(في الضلالات) ، فيما بين (١٢٦٩) و(١٢٧٢)، ثم (في الجواهر المفارقة) ، فيما بين (١٢٧٢-١٢٧٣) ، واخيرا (في امتزاج العناصر) اللذان انتهى منهما عام (١٢٧٣)[١].

ولقد كان أكبر أثر لمعاناته كتب ارسطو تمييزه الحاسم بين الفلسفة واللاهوت، فقد رأى تلك الكتب تضم مذهبا تاما فى الوجود قائما على الملاحظة والبرهان ليس غير، فكانت النتيجة المحتومة عنده أن " الأمور اللاهوتية لا تتفق فى مبادئها مع الأمور الفلسفية فأن اللاهوت يقوم على الوحى دون العقل واذن فلا نستطيع فى الفلسفة الخوض فى مسائل لاهوتية" ولكننا نستطيع فى اللاهوت استخدام الفلسفة، بل يتحتم علينا ذلك لتفهمه على قدر الامكان، واذا أردنا تلخيص آرائه فى المسائل الرئيسية بدأنا بمسألة الله فقلنا انه فى مؤلفاته الأولى يشرح ويفسر وجود الله أكثر مما يبرهن عليه، تمشيا مع الأوغسطينية بل فى شرحه على قول ديونيسيوس أن الله مجهول نراه كأنه يسبق كنط الى أن الحكم بوجود الله اى ذات لا متناهية ابتداء من المعلولات المتناهية خروج بمبدأ العلية الى أبعد مما ينبغي اذ أن هذا المبدأ لا يتطلب سوى علة متناسبة مع المعلول وليس بين الله والعالم تناسب[٢].

ولكنه بعد أن تحول الى أرسطو، لم يعتبر وجود الله بينا بذاته ولم يرى امكان استنباطه من فكرة الله وانما قال بوجوب البرهنة عليه، وعاد الى الاشكال المتقدم فحله على النحو التالى: اننا أولا نصل الى علة أولى بناء الى استحالة التسلسل الى غير نهاية، وبعد ذلك يلزم لدينا من كونها العلة الأولى أنها غير متناسبة مع العالم بالضرورة لأنها ان كانت متناسبة معه كانت متناهيه مثله، فلم تكن أولى بل افتقرت الى علة، وعدنا الى التسلسل وهو مستحيل بموجب مبدأ العلية وهذا هو المنهج القويم خلافا لما ظن كنط [٣].

١) زينب محمود الخضيري ، آثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة ، (د.ط)، ١٩٨٣، ص ٢٥- ٢٦.

2) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ، ص ١٦٤.

٣) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

ان توما الأكويني يستحق كل هذا التبجيل والاحترام في تاريخ الفكر الفلسفي، ليس بوصفه فيلسوفا لاهوتيا، ولكن بوصفه فيلسوفا خاض مشكلات هامة[*] تتعلق بالحياة الروحية للانسان[١].

المطلب الثاني : الاصول الأرسطية للفلسفة اللاهوتية للأكويني

ان تأثير الفلسفة الأرسطية فى فلسفة توما الأكوينى كان تأثيرا جوهريا لدرجة يصعب معها تمييز الأفكار الأكوينية الأصلية مع افكار أرسطو طاليس ولعل أوضح هذه

١) ماهر عبد القادرمحمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية –الأسكندرية، (د.ط)، ٢٠٠٠، ص ٣٩٢- ٣٩٣.

(*) ولد وعاش القديس توما الأكويني وسط اتجاهات ثلاثة مختلفة الاتجاه الأول وهو ما يطلق عليه الأوغسطينية السينوية وفلاسفة هذا الاتجاه يأخذون عن أبن سينا فكرة اشراق العقل الفعال الا أنهم يضيفون لله المعاني التى يضيفها ابن سينا لعقل فلك القمر كذلك يأخذون عن أرسطو نظرية الهيولى والصورة ولكنهم يتصورون الهيولى ذات وجود خاص مستقل عن الصورة النوعية على ما تصورتها الأفلاطونية الجديدة ويجعلون التجوهر من هيولى وصورة شاملا للنفوس الانسانية والملائكية أيضا ويكثرون الصور في الأجسام المركبة ومنها الانسان على ما ذهب اليه أفلاطون فى محاورة طيماوس حيث جعل للانسان ثلاث نفوس كذلك ينبذون فكرة صدور الموجودات عن الله صدورا ضروريا قديما كما عرضها ابن سينا، والاتجاه الثاني هو ما يطلق عليه الارسطوطالية المسيحية وأظهر مميزات هذا الاتجاه الفصل بين الفلسفة واللاهوت وتصحيح أرسطو بالاستناد الى ذات مبادئه وتكميله بالافلاطونية الجديدة والممثلون لهذا الاتجاه هم اتباع القديس دومنيك المتأثرون بفلسفة أرسطو وأهم اقطاب هذا الاتجاه هم القديس البرتوس الأكبر والقديس توما الأكويني، اما الاتجاه الثالث فيطلق عليه الارسطوطالية الرشدية أو الرشدية اللاتينية وربما كان اهم ما يتميز به هذا الاتجاه عن الاتجاهين السابقين هو عدم اهتمامه بالتوفيق بين الدين والفلسفة وابتعاده عن المسيحية الى الحد الذى جعل البعض يعده اتجاها مبتدعا خارجا عن الدين، وكذلك أعلان أصحابه أنهم أرسطوطاليون خلص واعتبارهم تأويل ابن رشد لمذهب ارسطو اصدق صوره له وأكمل مظهر للعقل وأهم أقطاب هذا الاتجاه سيجر دى برابان الذى كان يدرس في باريس وينكر العناية الالهية والخلود وحرية الارادة ويقول بقدم العالم وبعقل واحد للجنس البشري وهذه كما هو معروف قضية رشدية دار حولها نزاع متصل وألف فيها الاكويني عام ١٢٧٠ كتابا يرد فيه على ابن رشد وهو كتاب في وحده العقل، المصدر: نقلا من كتاب ميلاد ذكى غالي ،الله في فلسفة القديس توما الأكويني.

الفروق جميعا والذى لا يحتاج الى جهد كبير لادراكه هو أن الأكوينى مسيحي جاهد قدر وسعه أن يكون أرسطيا جيدا ومسيحيا أصيلا فى ذات الوقت ولعل معظم المشكلات الكبيرة قد نشات لديه بسبب محاولته التوفيق بين هاتين الفكرتين، فقد رتب الأكويني فكره على أساس انه فيلسوف مسيحي غير ان فلسفته تشتمل كذلك على عناصر أفلاطونية الأصل وبعضها استمده من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة غير أن هذا لا ينفى وجود أفكار أكوينية شخصية ذاتية صميمة فى فلسفة توما الأكويني ولكن على الرغم من ذلك فانه من العدل والانصاف للحقيقة أن نعترف بأن قوته الفكرية الضاربة ليست من أفكاره الذاتيه ، ان عظمته الكبرى تمثلت فى قدرته على الجمع والتوفيق بين هذه العناصر الفكرية المختلفة وصياغتها فى قالب فكرى واحد ساعده كثيرا فى الدفاع عن الديانه المسيحية(1)، وأسطو هو المثال الذي يقتدي به توما وقد أخذ منه: مفهوم المعرفة باعتبارها عملية استقبالية وعلى هذا الاساس وضع نظريته التجريدية للمعرفة (2).

وصحيح أن القديس توما الأكوينى يشرح أرسطو كغيره من الشراح مثل الاسكندر الأفروديسى أو ثامسطيوس أو غيرهم، وصحيح ايضا أنه يتبنى المذهب الأرسطي ان صح هذا التعبير مستعملا جهازه العقلي كقاعدة يعرض عليها حقائق الدين المسيحى الا أن ذلك لم يتم له بمجرد حسن اختيار أو تبعية فكرية، بل تم له ذلك طبقا لعملية معروفة ومدروسة تحصل فى كل لحظة يتم فيها التقاء حضارتين وتشبع ثقافتين احدهما بالاخر، وقد استطاع شبنجلر أن يعطينا خصائص هذه العملية التى سماها التشكيل الكاذب وهى عملية لغوية محضة تتلخص فى التعبير عن مضمون احدى الثقافتين فى صورة الثقافة الأخرى، أى التعبير عن معانى الأولى باستعارة ألفاظ الثانية وذلك أمر طبيعي اذ ان اللغة مشاعة بين جميع الثقافات خاصة بعد أن تتم ترجمتها ونعنى باللغة هنا مجموعة المصطلحات والمفاهيم التى استطاعت أحد الثقافتين أن تخلقها لتعبر بها عن تصورها للعالم، ولم يخرج القديس توما الاكوينى عن هذا فقد عبر عن حقائق الدين المسيحي مستعملا ثقافة العصر وهي مفاهيم أرسطو واصطلاحاته خاصة بعد ان أصبحت مشاعة

بين الجميع، ويظهر ذلك من طريقة تعبير القديس وهو يعرض الفاظه ثم يشير الى أرسطو قائلا: وهذا ما يسميه الفيلسوف[3].

وفيما يتعلق باللاهوت فينبغي أن نذكر انه ينقسم في الواقع قسمين، فهناك أولا مايسمى باللاهوت الطبيعي الذي يبحث في الله في اطار موضوعات كالعلل الولى والمحركات الأولى وما شابهها وهذا ما يسميه أرسطو بالالهيات ، ويمكن ان يدرج ضمن الميتافيزيقا غير ان الأكويني بوصفه مسيحيا قد وضع أيضا ما يمكن تسميته باللاهوت العقائدي الذي لا يعالج الا الأمور التي نصل اليها بالوحي أو النقل وهو هنا يرتد ثانية الى موقف كتاب المسيحية الأوائل وخاصة أوغسطين الذي يبدو أن يؤيد على وجه العموم آراءه في اللطف الالهي والخلاص، وهذه بالفعل أمور تتجاوز نطاق العقل وبطبيعة الحال فان اللاهوت العقائدي غريب تماما عن روح الفلسفة القديمة، ولا نجد شيئا متشابها له عند ارسطو، ولقد كان هذا العنصر اللاهوتي هو الذي أدى بتوما الأكويني الى أن يتجاوز أرسطو في مذهبه الميتافيزيقي في مسألة هامة فنحن نذكر أن اله أرسطو كان أشبه بمعماري متجرد أما الأشياء الجزئية فلسنا مضطرين الى ان ننسب اليها الوجود لأنها هناك فحسب وكذلك المادة الخام التي شكلت منها، أما الأكويني فان الله منبع كل وجود والشيء المتناهي لا يتصف بالوجود الا عرضا فهو في وجوده يعتمد اما بطريق مباشر أو غير مباشر على حقيقة توجد بالضرورة وهي الله[١].

وكلا الفيلسوفين أرسطو والأكويني تتجاذبه دعوتان، دعوة نحو المثالي والضروري الذى يظهر فى الصورة أو في الله ودعوة نحو الواقعي والفردي الذى يظهر فى المادة أو

---

١) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص ,٤١٧

٢) فوادسواف تاتاركيفتس، فلسفة العصور الوسطى، ت : محمد عثمان مكى العجيل، كنوزللنشر والتوزيع– القاهرة، (ب. ط)،(د.ت)، ص ,٢٠٧

٣) حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط : أوغسطين – أنسلم – توما الأكويني، ص٣٤.

١) برتراند رسل ، حكمة الغرب ،ج١، ت: فؤاد زكريا، سلسلة علم المعرفة – الكويت، (د. ط)، (د.ت)، ص ٢٣٧- ,٢٣٨

٢) حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص ٢١٧- ٢١٨.

في العالم وهذه الدعوة ذات الاتجاهين المتعارضين هي اساس كل نبوغ فلسفي، ان القسمة الثنائية التي يستعملها الأكويني لتحديد معنى لفظ الوجود الوجود الذى ينقسم الى الأجناس العشرة والوجود الذى يعنى الصدق فى القضايا هي قسمة الفيلسوف أرسطو الذي يرى الوجود وجودين واقعيا كوجود الجوهر وفكريا الذى يعبر عنه بفعل الكينونة فى الربط بين الموضوع والمحمول فى القضية ويختار القديس الوجود بمعناه الأول كي يكون موضوع تحليله ويتجه نحوه ويصبح هذا الوجود هو الجوهر الأرسطي المتميز الذى يدل الحد عليه، ولكن الحد الذى لا يكون الا بالجنس البعيد والفصل القريب يدل على جوهر الشيء أى على ما به قوامه او ان شئنا على الماهية، فالماهية قريبة من الوجود ان لم تكن فيه والجوهر طبيعة والطبيعة هي ماهية الشيء والشيء هو فعله والجنس لا يضاف الى الفصل الا كما يضاف الموضوع الى الكيفية والواقع أنه لا اضافة هناك فالجنس والفصل تحديدات لمادة هى الموضوع نفسه الذى لا ينفصل عن كيفياته والحركة داخلة في الشيء والنمو حال فيه ذلك يصير من القوة الى الفعل والعقل الذى هو بالقوة اشبه بلوح مصقول لم ينقش عليه شيء(٢).

ثم يبدو الشق الثاني في فلسفة أرسطو عندما يبين توما الاكوينى هذه النزعة نحو الصورة في تحليله للجواهر البسيطة والعودة بعدها الى الجواهر المركبة حيث يرى ارسطو أن الصورة هى مصدر الفصل والفصل مستخلص من ماهية الشيء وهي الصورة كما تتضح هذه النزعة في ترتيب الوجود من مركب الى بسيط ترتيبا راسيا المركب من اسفل والبسيط من أعلى حتى اذا وصلنا الى الجواهر العقلية عاشت كلها على نسق واحد فى ترتيب افقي يمتنع فيه القسمة الا ان العلة من أعلى والمعلول من أسفل وهكذا يتحول التنزيه العقلى الى نزعة دينية تلقائية تجعل من الصورة علة ومن المادة معلولا والصورة لا تحتاج الى مادة كما لا يحتاج التعقل الى جسم أو آلة وان كان منها ما يحتاج كالاحساس، بل ان المادة تعيش فى ترقب للصورة وهذا الترقب هو الذي يسبب المباينة في المادة وكأن الصورة سجينة تود الانطلاق الا أن المادة تثقلها وتتشبث بها فالتنزيه

العقلي الأرسطى والايمان الدينى عند توما الأكوينى يؤديان فى النهاية الى اثبات موجود تكون ماهيته عين وجوده ويحتوي على جميع الكمالات(١).

ويتابع القديس توما الأكويني أرسطو في الحديث عن الميتافيزيقا بوصفها علم الوجود بما هو موجود، لكن القول بأن مركز تفكيره يدور حول العيني، وواقعة أنه كان لاهوتيا مسيحيا قادته للتشديد أيضا على النظرة التى تقول ان الفلسفة الأولى تتجه بأسرها الى معرفة الله بوضع الغاية النهائية، وأن معرفة الله هي الغاية المطلقة أو النهائية لكل معرفة وعملية بشرية، ولكن الواقع أن الانسان خلق لمعرفة أعمق ووثيقة أكثر بالله، أكثر مما يستطيع بلوغه بممارسة عقله الطبيعي في حياته، وكذلك الوحي، ضرورى أخلاقيا حتى يستطيع عقله أن يرتفع الى شيء يفوق وضع حياته بأسرها ومن ثم فالميتافيزيقا موضوع خاص، واستقلال معنى من ذاتها، لكنها تشير الى أعلى، فعلى حين أن الله هو الموضوع الأول للميتافيزيقا فانه يعلو على فهم الرجل الميتافيزيقي وعلى فهم العقل الطبيعي بصفة عامه، ولما كانت المعرفة التامة او الرؤية الكاملة لله لا يمكن بلوغها في هذه الحياة المعرفة فان التصورية لله يتوجها في هذه الحياة :التصوف، ولا يدخل اللاهوت الصوفي ضمن نطاق الفلسفة، وينبغي على المرء ألا ينسى أن المعرفة الفلسفية عند القديس توما لاهي كافية ولا هي نهائية(٢).

وتصور توما الأكويني لله تابع لتأليه العصر الذي يقتضى اعتباره الصورة المحضة، والجوهر البسيط والعلة الأولى، والذى تكون ماهيته عين وجوده، والذي هو دائما بالفعل والذي يحتوى على جميع الكمالات، فثقافة العصر تقتضي اعتبار الصورة اشرف من المادة والعلة سابقة على المعلول، الله من حيث هو وجود وحياة لا تستطيع الصورة المحضة أن تغنى عنه شيئا، بل ان البراهين الخمسة المشهورة على وجود الله لا تثبت الا نفسها ولا تكشف الا عن قوانين العقل في الانتقال من المعلول الى العلة، ومن المتحرك الى الثابت، ومن الحادث للضروري، ومن الناقص للكامل، ومن التابع للمتبوع،

---

١) حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص ٢١٨– ٢١٩.

٢) فردريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ت: امام عبد الفتاح امام ، اسحاق عبيد ، مراجعة وتقديم : امام عبد الفتاح امام، المركز القومي للترجمة – القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص ٢٩– ٣٠.

صحيح أننا لا نستطيع أن نعرف عن الله شيئا الا بالطريق السلبي في نفي كل تشبيه واما أنه من المحال أن نعرف شيئا عنه، وعلينا أن نختار بين ما يقوله توما عن الله وبين ما يقوله عن العالم لان محاولته في تثبيت عينية عليهما معا ادت الى تنزيه عقلي مبني على عاطفة دينية، على أية حال كل تفكير الهي لا يقول شيئا عن الله بل يكشف عن عقلية الفكر ومزاجه كما يكشف عن ثقافة العصر ونوعها(١).

ومن العسير اليوم ان نفهم اثر احياء الفكر الفلسفى الأرسطى ودلالاته وكذا لا نستطيع ان ندرك مدى اصطدامه بأفكار مفكرى القرن الثالث عشر الميلادى فحتى عام ١٢٠٠م كانت الأيديولوجية المسحية تسود أوربا دون منافس حقيقى لها على الاطلاق وسرعان ما ظهرت هناك أفكار اخرى الى جوارها فى ذات الوقت وشكلت هذه الأفكار فى مجموعها ثلاثة حقائق مميزة وواضحة: (١- الفلسفة الأرسطية التى لم تكن نتاجا للمفكرين المسيحين ولا هى نابعة من الثقافة المسيحية (٢- أن بعض الأفكار الهامة فى الفلسفة اصطدمت بالأفكار الأيديولوجية المسيحية (٣- بالنسبة للمسيحيين الذين درسوا أرسطو واستوعبوه جيدا ظهرت لهم فلسفته على أنها التفسير الصحيح للحقائق وهنا فان الفلسفة الأرسطية قد خلفت من المشكلات فى العالم الغربى اكثر مما نتصور ولكن بمرور الوقت بدأ ظهور الدعوة لدراسة الفلسفة الأرسطية فى المدارس والجامعات غير أن هذه العودة لم تصادف نجاحا كبيرا بل وباءت كل محاولاتها بالفشل حتى أن المجلس الباريسي فى فرنسا حرم تناول الأفكار فى الفلسفة الطبيعية، وكان ذلك فى عام ١٢١٠م (٢).

هنا تتضح لنا الأهمية التاريخية لتوما الأكويني الذى استطاع فى هذا الجو المشحون بالتحفيز والمصادمات بين الفلسفة الأرسطية الأيديولوجية المسيحية أن يحل المشكلة لكل من الاتجاهين بطريقة جعلت الكنسية الكاثوليكية نفسها لا تتحرج فى قبولها والموافقة عليها ولقد تمثل الحل الأكوينى فى تقبل الفلسفة الأرسطية مهما كانت وتطويعها أو تشكيلها بطريقة لا تجعلها تتعارض مع الدين وبأسلوب توفيقى فريد بحيث لا تتصادم مع

١) حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص ٢٢٥- ٢٢٦.

٢) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، ص ٤١٨.

الكنيسة وفي سبيل هذا الغرض اضطر الأكويني الى رفض بعض النقاط الرئيسية وحذفها كما اضطر الى تعديل بعضها الآخر بحيث تتفق والمعتقدات الدينية المسيحية ولعل أشهر أمثلة الفكر الأرسطى التى رفضها الأكوينى هى الفكرة الأرسطية عن العالم والقائلة بأنه قديم وابدى كذلك فكرته عن المحرك غير متحرك والذى يعتقد بموجبه أن الله هو الذى يعطى للعالم الدفعة المحركة الأولى وبعد أن يقوم بهذا العمل لا يعود لديه اهتمام ايجابي بالعالم وهو قطعا لا يراقب انفعال البشر ان الهه اله فلسفى لا لون له وما هو الا ملحق من ملاحق نظريته فى السببية، في حدود هذا المفهوم الأرسطى يصبح من المستحيل أن تنشأ اى توفيقية بينه وبين المعتقدات المقدسة للكنيسة المسيحية فلكى تتفق هذه الآراء الأرسطية مع الديانة المسيحية اضطر توما الأكويني الى تطويعها ورفض بعضها مما يتنافى مع أساسيات اللاهوت المسيحى أن محاولة الأكوينى للتوفيق بين المسيحية والأرسطية لم تقتص على الطبيعيات فحسب وانما تشمل لاهوت ما بعد الطبيعة أيضا[١]

لقد رأى القديس توما أن اللاهوت الطبيعى يحتاج اذا ما أردنا ادراكه بطريقة صحيحة الى الكثير من الدراسات السابقة ومن التأمل يصر على أن الوحى ضرورة أخلاقية مقدما واقعة أن الله هو غاية الانسان وفضلا عن ذلك فليس اللاهوت الطبيعي وحده الذى يحتاج الى تأمل ودراسة وقدرة أكثر عن معظم البشر فى موقف يكرسون انفسهم له، بل حتى عندما تكتشف الحقيقة فان التاريخ يبين لنا أنها كثيرا ما يفسدها الخطأ فلا شك أن الفلاسفة الوثنيين اكتشفوا وجود الله لكن كثيرا ما يكون الخطأ متضمنا فى نظراتهم وتأملاتهم فاما أن لا يدرك الفيلسوف جيدا وحده الله على الوجه الصحيح، أو أن ينكر النعمة الالهية أو الايمان لأنه يرى أن الله خالق ولو أن السؤال كان فى علم الفلك او فى العلم الطبيعي لما كان للأخطاء اهمية كبيرة، طالما أن الانسان يستطيع على نحو كامل بلوغ غايته حتى لو اعتنق أراء خالصة تتعلق بالمسائل الفلكية أول العملية لكن الله هو

١) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، ص ٣١٩.
٢) فردريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٣٣– ٣٤.

نفسه غاية الانسان ومعرفة الله أساسية حتى يستطيع الانسان توجيه ذاته على نحو سليم الى هذه الغاية ومن ثم فالحقيقة التى تتعلق بالله على جانب عظيم من الأهمية، أما الخطأ فيما يتعلق بالله فيعد كارثة فاذا سلمنا اذن ان الله هو غاية الانسان لاستطعنا أن نعرف أنها ضرورة أخلاقية أن يكون اكتشاف هذه الحقائق على هذا القدر من الأهمية للحياة ينبغي أن لايترك ببساطة لقوى لا يدعمها شيء لأولئك الناس الذين لديهم القدرة والرغبة الجامحة ووقت الفراغ لاكتشافها لكن القول بأن هذه الحقائق ينبغي أن تكون موحاة أيضا(٢)، ولقد كان ترحيبه بفلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية سببا فى التشهير ببعض معاصريه وذلك انه قد رغب عن النزعة الأفلاطونية الجديدة التى كانت خليقة أن تجتذب اليها مفكرا دينيا اذ هي نزعة تدفع معتنقها الى تامل المثل بمعزل عن هذا العالم الزائل كأنه الظل، ليرى المثل مجسمة في المكان والزمان من حولنا فقد كان فكره كفكر أرسطو مطبوعا بواقع الحياة الطبيعة الراهن(١)

المطلب الثالث : الدليل الأنطولوجي عند توما الأكويني

لقد أقر توماس ما وجده لدى الفلاسفة المسلمين والاسكولائيين من تعريف المعرفة بأنها" مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان" أي أن تكون أفكارنا صور مطابقة للواقع الذي نصل اليه عن طريق الاحساس، سواء الداخلي مثل الشعور بأحوالنا النفسية، والخارجي مثل الشعور بوجود الأجسام وبصفاتها التي تقع تحت حواسنا، ولكن الوجود ليس مقصورا على الأجسام وصفاتها التي تقع تحت حواسنا ولا مقصورا على الأجسام الطبيعية المحسوسة بل يشمل موجودات أخرى غير جسمية ولا تقع عليها حواسنا ولا نستطيع بالتالي أن نعرف طبيعتها وان كنا نستطيع أن نثبت بالعقل وجودها مثل الله الذي نفسر به ما نجده في الطبيعة من نظام وحكمة بالغة، ومثل الأرواح التي تدبر الكائنات الحية العاقلة وتميزها عن غيرها من الجمادات فهناك اذن عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة ومن ثم فان مصدر معرفتنا بالوجود بقسميه يجب أن يكون مزدوجا فالعقل يعتمد

١) الموسوعة الفلسفية المختصرة، مجموعة من الفللاسفة الانكليز : فؤاد كامل، وآخرون، ص ,٧٣

٢) كامل محمد محمد عويضة ، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٣، ص٣٩.

على الحواس في معرفته بالعالم الطبيعي وهذا هو ميدان الفلسفة وعمومها، أما عالم ما وراء الطبيعة فان العقل لابد أن يعتمد فيه على الوحي وهذا هو ميدان الدين واللاهوت وكما لا يجوز للاّمي أن يكذب الفلسفة بحجة أنه لا يفهمها فكذلك لا يجوز للفيلسوف أن يكذب الدين بحجة أن عقائده ومعجزاته لا تخضع لأحكام عقله ونحن نستطيع أن نصل بالعقل الى معرفة بعض العقائد الدينية واثباتها مثل وجود الله وخلود الروح فيكون ايماننا الديني هنا مدعما باليقين العقلي ايضا[٢].

ولما كان الله غير واقع تحت الحس فلابد لمعرفته من أن يستعين العقل بالوحي الذي وصف الله به نفسه، ومع ذلك فالعقل يستطيع البرهنة على وجود الله، وأن يعرف بعض صفاته بطريق غير مباشر، أي التماسها بالبحث في آثارها في المعلولات، وقد أنكر توماس مع موسى بن ميمون الرأي القائل بأن وجود الله بديهي، ولا يحتاج الى اثبات، لان من يعجزون عن ادراكه، ومن ينكرون وجوده ليسوا قليلين [١]، لقد اختار القديس توما اختيارا صريحا أرسطو، لقد حظر على نفسه التفتيش عن الأفكار خارج حدود هذا العالم المحسوس، ومع أرسطو فقد أمن أن المصدر الوحيد لمعرفتنا، وحتى أسماها درجة، هو الواقعة المحسوسة، وفي الأشياء المحسوسة عنصر معقول هو الصورة، التي هي الفكرة الالهية متحققة ومتعينة في المادة، ولكي يصبح هذا المعقول بالقوة معقولا بالفعل يجب أن تتدخل ملكة ناشطة هي التي تسمى بالضبط العقل الفعال[٢].

ويذكر الأكويني في الخلاصة اللاهوتية أن الطريق الى أثبات وجود الله لا يتم الا بالبرهان الاني لا اللمي وقرر ذلك بقوله على من زعم أنه لا يمكن البرهان على الله تعالى: الجواب أن يقال ان البرهان قسمان أحدهما ما يكون بالعلة ويقال له لمي وهذا يكون بما هو متقدم مطلقا والثاني ما يكون بالمعلول ويقال له اني، لأنه متى كان معلول أوضح من علته فاننا نتأدى بالمعلول الى معرفة العلة، وكل معلول يمكن أن يبرهن منه

---

١) كامل محمد محمد عويضة ، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، ص٤٠.

٢) جونو، تاريخ الفلسفة والعلم قي أوربا الوسيطة، ت: علي زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت – لبنان ، (د.ط)، ١٩٩٣، ص ,١٢٦

٣) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة، منشورات الأصيلن، ط١، ٢٠١٦، ص ٦٧– ٦٨.

على وجود علته الخاصة اذا كانت معلولاتها أبين منها لنا لأنه لما كانت المعلولات متوقفة على العلة فوجود العلة يستلزم بالضرورة تقدم وجود العلة عليه فاذا لما كان وجود الله ليس بينا في نفسه لنا، كان متبرهنا بآثاره البينة لنا، ومنها شرع في بيان المناهج الخمسة التي يرتئيها للبرهان على وجود الله وهي مسالك مشهورة بين الدارسين للفلسفة والالهيات وفلسفة الدين[٣].

واذا كانت محاورة المعلم للقديس أوغسطين دليلا على وجود الله يقوم على تحليل اللغة واثبات عجزها عن التعليم ومن ثم فلابد من معلم داخلى فى باطن كل انسان وهو المسيح أو ان شئنا فهو الله الذى ينكشف فى القلب كنور يضئ له الأشياء ذاتها واذا كان مقال فى وجود الله للقديس أنسلم دليلا آخرا على وجود الله يقوم على استنباط الوجود من الفكر واثبات وجود الله بالفعل من احدى صفاته وهي الكمال فالوجود والماهية للقديس توما الكوينى يقدم دليلا من نوع آخر على وجود الله بتشيده صرحا عقليا من أدوار عدة تسكن الأشياء فيه فى الأدوار الأولى لأنها جواهر مركبة من مادة وصورة والملائكة والنفوس فى الأدوار الثانية لأنها جواهر روحية بسيطة ما زالت تشوبها المادة وان كانت من نوع روحي والقوة التي تصير الى فعل ويقبع الله فى الدور الأخير لأنه جوهر بسيط علة أولى وصورة محضة، واذا كان القديس أوغسطين يعتبر قمة الفلسفة المسيحية فى عصر آباء الكنيسة كما يعتبر عمله الجامع لكل أعمال آباء الكنيسة اليونان واللاتين منهم فكذلك يعتبر القديس توما الأكويني قمة الفلسفة المدرسية فى العصر الوسيط المتأخر كما يعتبر عمله الجامح لكل المحاولات الفلسفية السابقة عليه فى الاعتماد على الأفكار الأرسطية فى عرض حقائق الديانة المسيحية واذا كان أفلاطون والافلاطونية الجديدة معه فى العصر الكنسي هو الدعامة الأولى التفكير المسيحي الناشئ كما اتضح ذلك عند آباء الكنيسة فى القرن الرابع فان أرسطو أصبح الدعامة الأولى فى العصر الوسيط المتأخر لمفكرى المسيحية والمدافعين عنها وهكذا لم يعد العالم ظاهرا يدركه الحس وحقيقة تنكشف فى المثال بل أصبح مادة موجودة بالفعل مركبة من مادة وصورة بل أن الصورة نفسها لم تعد مجرد وجودا ذهنيا بل أصبح لها وجود واقعيا فى بعض الأحيان ولم يعد يستعمل الأدب والبلاغة كأسلوب للخطاب بل أصبح هناك الجدل والمنطق كوسيلة للاقناع اى أن المسيحية لم تعد معاشة بالقلب تنحر فى الوجود وتبين

تناقضاته بل أصبحت مذاهب عقلية تحاول أن تتفهم سر العقائد سواء أنجحت فى ذلك أم لم يقدر لها النجاح[١].

والنظرية التوماوية يمكن النظر اليها من زاويتين فهي فى أحد مظاهرها كلية وتطال جميع كيفيات المعرفة كائنة ما كانت وتعين شروط كل معرفة وفي مظهرها ألآخر نقدية وتعين حدود المعرفة البشرية وشروطها الخاصة فى مظهرها الأول تستلهم صيغة لأرسطو كان افلوطين وأبروقلوس في مبادئ الالهيات الذى هو هو كتاب في العلل قد أسهبا في شرحها وأفاضا النفس هي بمعنى ما الأشياء طرا هي بمعنى ما الأشياء المحسوسة التي تدركها بالحواس وذلك ما دام الاحساس وهو فعل مشترك بين الحاس والمحسوس يطبع في النفس صورة الاشياء بدون هيولاها وانما مع جميع الاعراض التي تفردها ومن جهة اخرى ان العقل بالفعل هو هو الشيء عينه الذي يتعلقه فلا فرق بين العلم والشيء المعلوم والمعرفة سواء في حال المعرفة الحسية أو المعاينة الالهية حضور معين يتعذر تحليله للموضوع المعروف في الذات العارفة ومن ثم ليست المعرفة كما يقال في كثرة من الاحيان عن خطأ ممائلة انما ينبغي القول قط وذلك هو المظهر الثاني انه بفضل المبدأ التالي المعروف حاصل في العارف وفق حال العارف يمكن أن تقوم حالات تكون فيها المماثلة أي العملية التي بها يجعل المعروف مشابها للعارف شرطا مسبقا للمعرفة فمثلا حينما يكون الذات والموضوع مختلفين اختلاف النفس والشيء المحسوس لا يمكن ان تتم المعرفة العقلية الا بوساطة صورة هي في آن معا صورة خالصة للعقل وخيال أو شبه للشي المتعقل وتلك هي الصورة الباطنة التي بها يبدا العقل المتعقل للشيء عمليته التي ينهيها بالحد او الصورة البائنة[١].

يذكر فردريك كوبلستون في كتابه (تاريخ الفلسفة) أنه اذا كان وجود الله لا يمكن البرهنة عليه قبليا من خلال فكرة الله أو من خلال ماهيته فيتبقى أنه لابد من البرهنة عليه بطريقة بعدية من خلال فحص نتائجه وآثاره وقد يعترض معترض فيقول انه من

---

١) حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ص ٢١٠– ٢١١.

١) اميل برهييه، تاريخ الفلسفة العصر الوسيط والنهضة، ج٣، ت: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص ١٧٦– ١٧٧.

٢) فردريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٦٤– ٦٥.

المستحيل طالما ان آثار الله متناهية والله نفسه لا متناه فلن يكون ثمة تناسب بين النتائج والعلة وسوف تتضمن نتيجة عملية الاستدلال أكثر بطريقة لا متناهية مما هو فى المقدمات فالاستدلال الذي يبدأ بالموضوعات الحية لابد من ثم أن ينتهى بموضوع حسي يجاوز بطريقة لا متناهية جميع الموضوعات الحسية ولا يتعامل القديس توما مع هذا الاعتراض بأى تفصيل فسوف يكون من خلف المفارقة التاريخية أن نتوقع أن يناقش ويجيب مقدما على النقد الكانطى للميتافيزيقا وانما نراه يشير الى أنه على الرغم من دراسة النتائج والآثار التي تتناسب مع العلة فاننا لا نستطيع أن نحصل على معرفة تامة للعلة نحن نستطيع أن نصل الى أن العلة موجودة ويمكننا أن نسير من نتيجة الى وجود معلولها واذا ما كانت النتيجة من ذلك النوع الذى يمكن أن يسير فقط من نوع معين من العلة فاننا نستطيع أن نسير بطريقة مشروعة الى وجود علة من ذلك النوع استخدام كلمة أثار أو نتيجة لا ينبغى أن يؤخذ على أنه مصادرة من المطلوب والقديس توما يسير من وقائع معينة تخص العالم ويقول ان هذه الوقائع تحتاج الى تفسير أنطولوجي مقنع صحيح بالطبع أنه يفترض سلفا أن مبدأ العلية مبدأ ذاتيا خالصا أو أنه لا يمكن تطبيقه الا داخل مجال الظواهر بالمعنى الكانطي وانما كان على وعى تام أنه لابد من بيان أن الموضوعات الحسية هي نتائج وآثار بمعنى أنها لا تتضمن في ذاتها تفسيرها الأنطولوجى الخاص(٢).

ويذكر فردريك كوبلستون أيضا أنه لا يمكن معرفة الموضوعات روحية أو مادية الا بمقدار مشاركتها في الوجود من حيث وجودها في حالة فعل والعقل هو كذلك ملكة للمعرفة ومن ثم فاذا نظرنا الى العقل في ذاته وجدنا أن موضوعه هو الوجود بأسره فالموضوع الأول للعقل هو الوجود غير أن واقعة أن نوعا معينا من العقل وهو العقل البشري يتجسد ويعتمد فى عمله على الحس يعني أن عليه أن يبدأ من أشياء حسية وأنه يمكن ان يصل الى معرفة موضوع يجاوز اشياء الحس ونظرا للواقعة التى تقول ان العقل البشرى يجسد موضوع الطبيعة المناسب الذى يتناسب مع حالته الراهنة هو الموضوع المادى الا أن ذلك لا يدمر التوجه الأول للعقل الى الوجود بصفة عامة ولو كان للموضوعات المادية علاقة متميزة بموضوع ما يتجاوزها فان العقل يمكنه أن يعرف أن مثل هذا الموضوع موجود وفضلا عن ذلك فبمقدار ما تكشف الموضوعات المادية طابع

المتعالى فان العقل يمكنه بلوغ قدر من المعرفة عن طبيعته غير أن مثل هذه المعرفة لا يمكن أن تكون كافية أو تامة طالما أن الموضوعات الحسية لا يمكن أن تكشف طبيعة المتعالي على نحو كاف ويكفى أن نشير الى أن القديس توما عندما يقول أن الجسم المادي هو موضوع طبيعي للعقل البشري فانه يعنى بذلك أن العقل البشرى فى حالته الراهنة يتجه نحو ماهية الموضوع المادى لكن بوصفه الحالة التى يتجسد فيها العقل البشري فانه لابد من طابعه الأول بوصفه عقلا ومن ثم فتوجهه بفضل حالته المتجسدة نحو الموضوع المادي لا يدمر توجهه الأول نحو الوجود بصفة عامة ومن ثم فهو يستطيع بلوغ بعض المعرفة الطبيعية بالله بمقدار ما ترتبط الموضوعات المادية بالله وتكشف عنه الا أن هذه المعرفة بالضرورة ناقصة وغير كافية ولا يمكن أن تكون في طابعها حدسية[١]، ومن هنا وجدت الباحثة أن من المناسب تسليط الضوء على معنى مفهوم الدليل الأنطولوجي عند توما الأكوينى ولان منه شرع القديس في بيان أدلة الخمسة لوجود الله ومنه لمعرفة القاعدة الأساسية والتي منها أنطلق الفيلسوف توما الأكويني في أدلته تلك لأثبات وجود الله.

المبحث الثاني: أدلة وجود الله بين توما الأكويني والفلاسفة

المطلب الاول : أدلة الأكويني في اثبات وجود الله:

لقد حرص توما الأكويني على أن يأتي بأدلة على وجود الله فجاء بخمسة أدلة معروفة أصولها عند أرسطو، وكل فضله في ذلك أنه كان أول من حمل هذه الأدلة الأرسطو طاليسية الى التفلسف المسيحي، غير أن أرسطو كان قد أتى بهذه على أنها براهين تتعلق بالوجود والحركة والعلل، أما توما الأكويني فقد جعلها أدلة لاثبات وجود الله هذه الأدلة الخمسة متشابهة على كل حال وهي تتناول العلة المتحركة القصوى المفارقة – العلة المحركة المباشرة المادية – الواجب الوجود بنفسه– القوة المحركة الى غاية وبقصد– والموجود الأكمل، ولكن يظهر بوضوح أن القديس توما يتكئ في الحقيقة على الفارابي ،

---

١) فردريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٦٧.

لأن الفارابي فيلسوف مسلم وكان يقصد أن يأتي بأدلة على وجود الله، بينما أرسطو لم يقصد ذلك[١].

ان البراهين أو الأدلة الخمسة لتوما الأكويني جميعها تعتمد على الملاحظة عن طريق النظر في الكون سيتم ذكرها وكما جاءت في المصادر كالاتي:

البرهان الأول: المنهج الاول والاوضح من جهة الحركة فمن المحقق الثابت بالحس ان في عالمنا هذا اشياء متحركة وكل متحرك فهو يتحرك من آخر لانه ليس يتحرك شي الا باعتبار كونه بالقوة الى ما يتحرك اليه وانما يحرك شي باعتبار كونه بالفعل اذ ليس التحريك سوى اخراج شي من القوة الى الفعل واخراج شي الى الفعل لا يمكن ان يتم الا بموجود بالفعل كما ان الحار بالفعل كالنار يجعل الخشب الذي هو حار بالقوة حارا بالفعل وبذلك يحركه ويغيره لكن ليس يمكن لشي واحد بعينه ان يكون بالقوة والفعل معا باعتبار واحد بل باعتبارات مختلفة لان ماهو حار بالفعل ليس يمكن ان يكون من هذه الجهة حارا بالقوة ايضا بل هو من هذه الجهة بارد بالقوة فاذا ليس يمكن ان شيئا يكون محركا ومتحركا اي محركا لنفسه باعتبار واحد ومن جهة واحدة فاذا كل ما يتحرك فلا بد ان يتحرك من آخر واذا كان هذا الآخر متحركا فلابد ان يتحرك من آخر ايضا وهذا من آخر وهنا لا يجوز التسلسل الى غير النهاية والا لم يكن محرك اول فلم محرك آخر لان المحركات الثانية لا تحرك الا بما هي متحركة من المحرك الاول كما أن العصا لا تحرك الا بماهي متحركة من اليد فاذا لابد من الانتهاء الى محرك أول غير متحرك من آخر وهذا الذي يعقل الجميع انه الله[٢].

١) عمر فروخ، العرب واليونان وأوربا قراءة في الفلسفة، تقديم : رضوان السيد، المركز العربي للابحاث ودراسات السياسات، ط١، ٢٠١٥، ص ٢١٩.

٢) توما الأكوينى، الخلاصة اللاهوتية، ت: الخورى بولس عواد، المجلد الأول، المطبعة الادبية – بيروت، ١٨٨١، ص ٣٢-٣٣.

ان الحس يخبرنا بان هناك شيئا ما يتحرك في هذا العالم، غير أن جميع هذه التحركات تتحرك كل بواسطة الأخرى، وهي عندما تتحرك فهي تنتقل من القوة للفعل، وكلما زاد الفعل زاد الكمال، غير أن هذه الحركات تعتمد كل منها على محرك لها، يتحرك بدوره بفعل محرك آخر، وهذا الآخر له محرك أيضا وهكذا[١]، والدليل الأول مقتبس من المقالة الثامنة من السماع الطبيعي لأرسطو: " كل محرك محرك بآخر وهذا المحرك هو بدوره اما محرك واما غير متحرك فأن لم يكن محركا نكن قد وصلنا الى مبتغانا أي الى محرك أول غير محرك وهو ما نسميه الله وان يكن محركا فهو محرك بآخر ومن الواجب عندئذ اما متابعة السلسلة الى ما نهاية وهذا محال واما الانتهاء الى محرك غير متحرك" [٢].

البرهان الثاني: من جهة العلة المؤثرة فاننا نجد في المحسوسات الشاهدة ترتيبا بين العلل المؤثرة وليس يرى مع ذلك ولا يمكن ان شيئا يكون علة مؤثرة لنفسه للزوم وجوده قبل نفسه وهذا محال، والتسلسل ممتنع في العلل المؤثرة لان الأول بين جميع العلل الموثرة المترتبة هو علة الوسط ، والوسط هو علة الاخير سواء كان ثمه وسط واحد أو اوساط كثيرة [٣]، هذا الدليل يعود أصلا الى أرسطو حيث أشار اليه فى المقالة الثانية فقرة ٢ من كتاب ما بعد الطبيعة واستخدمه لبيان استحالة التداعى فى سلسلة العلل الى غير نهاية وضرورة الوقوف عند علة اولى سواء أكنا بصدد العلل الفاعلية أم بصدد العلل الأخرى كالعلة المادية وعن أرسطو أخذ نفس الدليل ابن سينا وفصله فى كتاب النجاة ونفس الدليل عند القديس البرتوس وقد قال به بعد أن تحول عن مذهب القديس أوغسطين الى أرسطو ، وينبغي أن نلاحظ بصدد هذا الدليل أنه يجىء عند الاكوينى بمعنى العلية الدينية وهى العلة الخالقة وليس المقصود هنا الرجوع الى لحظة أولى بدأت فيها علية الله بل المقصود الصعود فى الآن الحاضر وفى كل آن الى علة أولى بغض النظر عن قدم

---

١) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص ٤٣٥.

٢) اميل برهييه، تاريخ الفلسفة العصر الوسيط والنهضة، ص ,١٧٩

٣) توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ص ٣٣.

العالم وحدوثه، فالتسلسل هنا تصاعدى من حيث انه لابد من الوقوف عند حد أول أما التسلسل الزمانى فلا يمنع من أن يتولد انسان من انسان الى غير نهاية اذا افترضنا قدم العالم وهنا نقطة هامة وهى أن القول باستحالة التسلسل الى ما لا نهاية حتى اذا نظرنا الى التسلسل تصاعديا انما ينطوى على هدم المقدمة التي ترتكز عليها الحجة وهى أن لكل علة علة أخرى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد اثبت العلم الحديث أن التسلسل الى مالا نهاية أمر ممكن وواقع بصدد الحركة وواقع بصدد الحركة بالذات فالجرمان المتجاذبان فى الفضاء الخارجى يدوران حول بعضهما الى مالانهاية[١].

والدليل الثاني مستمد أيضا من أرسطو وأخذ به ابن سينا وألبرت الأكبر، وهو يثبت وجود الله كعلة فاعلية أولى لوجود الموجودات، وهو يشبه الدليل السابق لأنه يعلل وجود الأشياء بينما سابقه يعلل حركتها، فكل موجود لأبد له من علة فاعلية غيره أوجدته، لانه اذا كان علة فاعلية لوجود نفسه فيما أن وجود العلة الفاعلية لابد أن يسبق وجود المعلول فانه يكون اذن موجودا قبل نفسه وهذا خلق، ومحال أن يستمر تسلسل العلل الى ما لا نهاية ، لأن هذا يترك الموجودات بلا تعليل، فلابد من الانتهاء الى علة فاعلية اولى ليست معلولة لغيرها وهو الله[٢].

ويقوم هذا الدليل على قاعدة المحسوس، حيث الأشياء تؤثر في بعضها البعض، وحدوث أى ظاهرة لابد من وجود سبب لحدوثها وعلة على وجودها ؛ فالشيء لا يمكن أن يكون علة لنفسه، لأن المسبب يسبق السبب بالضرورة، والعلة تسبق المعلول، فلو كان الشيء عله لنفسه، فكأننا نقول أن الشيء الواحد يسبق نفسه وهذا لايصح، لذلك لابد أن يكون للشيء علة خارجة عنه الا أن ذلك لاستمر الى غير نهاية، بل لابد من الوقوف عند علة أولى تكون علة لجميع العلل، وهذه العلة هي الله[٣].

١) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكوينى، منشأة المعارف، الاسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ص٢٦.

٢) كامل محمد محمد عويضة ، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، ص ٤١- ٤٢.

٣) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص ,١٤٧

ونجد أن دليل العلة المؤثرة يتشابه مع دليل الحركة فى القول بوجود علة أولى أو محرك أول، فكما أن دليل الحركة يبدأ من الحركة الظاهرة في الموجودات ليصعد منها الى محرك أول كذلك هو الحال بالنسبة لدليل العلة الذى أيضا يبدأ من العلة الظاهرة فى الكون ليصل الى علة أولى لهذا الوجود[٤]، ومن هنا فان هذا البرهان القائم على الحركة يصح أيضا مع قولنا بابدية الحركة وأزليتها وذلك لأن الأبدية والأزلية هنا أبدية وأزلية أفقيتان، ولكن من حيث التعامد والتصاعد لابد من الوقوف عند حد معين يكون حدا أول ففي حالة الحركة اذا نظرنا الى العالم نظرة عمودية ان صح هذا التعبير أعنى من حيث تحريك الحركات بعضها بالنسبة الى بعض ترتبا تصاعديا من حيث تحريك الواحد للآخر تحريكا عموديا، فاننا تجد حينئذ أنه لابد من الوقوف عند حد أول يكون المحرك الأول، وكذلك في حالة العلية اذا نظرنا الى الكون باعتباره مرتبا أعنى أن للوجود مراتب، فالحجر في مرتبة دنيا، ويعلو عليه الانسان، ثم العقل الفعال، ثم الملأئكة، وأخيرا وفوق القمة الله [١].

البرهان الثالث: من جهة الممكن والواجب ذلك بأن في الطبيعة موجودات معروضة للكون والفساد ومن ثمة ممكن وجودها وعدمها بعد وجود، فلو كان عدم الوجود ممكنا في جميع الأشياء للزم أنه لم يكن حينا ما شيء ولو صح ذلك لم يكن الآن أيضا شيء فلابد أن يكون هناك موجود واجب لذاته هذا الدليل وارد عند أرسطو فيما بعد الطبيعة م١٢ ف٦ كما يلي: " الجواهر أوائل الموجودات فاذا كانت كلها فاسدة كانت جميع الموجودات فاسدة و اذا كانت القوة متقدمة على الفعل فان شيئا مما هو موجود لم يكن ليوجد" غير أن أرسطو يرتب وجود الواجب على أزلية العالم والحركة أما القديس توما فيلخص الدليل

٤) بجرة بختة، رومان سعيدة، الفكر الرشدي في أوربا المسيحية مابين القرنين ١٣-١٥م، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة، الجزائر، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٧٣.

١) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص ,١٤٨
٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص ,١٤٦
٣) اميل برهييه، تاريخ الفلسفة العصر الوسيط والنهضة، ص ١٨٠.

من هذه الصلة ويرى أن نظرية القوة والفعل تحتم اثبات الفعل الواجب لتفسير الممكن الذي بالقوة(٢).

ينطلق هذا البرهان من التجربة التي تتحصل لنا بحدوث الموجودات وفسادها؛ فمن كونها قابلة للفساد نستنتج انها ممكنة الوجود ليس الا، أي أنه كان هناك حين خرج فيه بها الى الوجود من قبل موجود سابق في الوجود عليها، ولكن لو كانت جميع الموجودات ممكنة الوجود ليس الا، للزم أنه كان هناك حين ما كان فيه أي موجود موجودا ؛ لكن سيكون من المحال في هذه الحال أن يشرع أي منها بالوجود ، ومن ثم لن يكون هناك وجود لشيء، لابد اذن من وضع موجود واجب الوجود بذاته ، نسميه الله (٣).

والبرهان الثالث أهم البراهين الخمسة على الاطلاق، وهو يعتمد على برهان المفكر والواجب، ويذكر الأكويني أن هناك أشياء ممكنة، وكل شيء ممكن يستمد وجوده من غيره، وهذا الممكن قد يتحقق وجودها بالفعل، وقد لا يتحقق ويظل وجوده بالقوة واذن فكل ممكن يحتاج لواجب يحققه، وهذا الواجب يعتبر ممكنا لواجب آخر، وهكذا حتى نصل لواجب بذاته، والواجب بالضرورة هو اللهويذهب القديس توما، اذن الى أنه لابد من وجود موجود ضروري، يكون علة الموجودات الحادثة التي تظهر الى الوجود، ما لم يكن هناك موجود ضرورى ماظهر شي الى الوجود على الاطلاق(١).

البرهان الرابع: من جهة تفاوت الموجودات في الصفات العامة المساوقة للموجود من حيث هو كذلك، كالوحدة والحقبة والخيرية والجمال والعقل والارادة، أي الأمور المعنوية الروحانية التي تقبل الاطلاق الى اللانهاية، على ما ينبغي للموجود الأول، والتفاوت انما يكون بالاضافة الى ما هو غاية في شيء، واذن فهناك موجود هو غاية في تلك الصفات، ومن ثمة غاية في تلك الصفات، ومن ثمة غاية في الوجود، وعلة لما في جميع الموجودات من وجود وكمال(٣)، وبما أن الحد القصى في كل جنس هو علة كل ما

١) فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٦٨.

٢) ميلاد زكى غالي، وآخرون، مشكلات فلسفية، ص ٢٨.

٣) كامل محمد محمد عويضة ، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، ص ٤٣.

٤) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكوينى، ص ٢٩.

يندرج في هذا الجنس، كما أن الناس التي هي حد أقصى في الحرارة هي علة الحرارة فى كل الاشياء، فلابد اذن من وجود شيءهو علة وجود كل الموجودات وعلة خيرتها وكمالها، وهذا هو الله(٢).

والدليل الرابع مستمد من أفلاطون وقد أخذ به أوغسطين وأنسلم وخلاصته أننا نشاهد تفاوت الأشياء فيما لها من صفات الحسن المختلفة اذ توصف بأنها حقة وخيرة وجميلة ونبيلة الخ ... ولكن التفاوت في درجات صفة من الصفات يدل على وجود كمال مطلق لهذه الصفة تقاس اليها تلك الدرجات المتفاوتة، وبما أنه لا وجود للصفة بدون موصوف فالكمال المطلق لا يوجد الا لموجود مطلق هو الله وقد لاقى هذا الدليل كثيرا من النقد لأنه يتضمن الانتقال غير المشروع من الفكر الى الوجود فالكمال المطلق في صفة من الصفات انما هو شيء متصور في الذهن فلا يجوز الاستدلال به على وجود موجز به خارج الذهن(٣).

هكذا يجئ الدليل الرابع في الخلاصة الاهوتية اما فى الخلاصة ضد الأمم فيصوغ الأكويني هذا الدليل الذى يقتطفه كما يقول من نصوص ارسطو ان ماهو غاية الحق هو أيضا غاية الوجود ثم فى المقالة الرابعة من نفس الكتاب اثبت أرسطو وجود غاية قصوى من الحق بدليل ان الشيئين الباطلين يكون الواحد منها اشد بطلانا من الآخر الذى يكون اقرب الى الحق ومن هذا يستنتج الأكويني انه يوجد موجود يبلغ غاية الوجود وهو ما نسميه الله(٤).

والتدبر على نوعين: تدبر واع وتدبر غير واع، فمن يتدبر امره عن وعي، يدرك غايته ويسع عن قصد اليها، ومن يتدبر امره عن غير وعي، يسع الى غاية وان كان لا يدركها ولا يقصدها، وسعيه اليها صادر عن ربط الوسيلة بالغاية ربطا يفوته مع انه لا يحيد عنه، وبالتالي فالفرق بين المتدبر الواعي والمتدبر غير الواعي ليس في ان تصرف هذا غير المعقول وان تصرف ذاك معقول، لان كلا التصرفين معقول، بل في أن الواعي يصدر تصرفهعن عقل فيه، وغير الواعي يصدر تصرفه عن عقل ليس فيه، اما ان يكون العقل الذي يصدر عنه تصرف غير الواعي فيه، فهذا لا يعني انه غير موجود، لان اثره باد في ربط الوسيلة بالغاية، بل انه موجود ولكن خارجا عنه، ولا سبيل الى انكار العقل

في حركة الكون، لان عقل البشر هو الذي يتبين اثر العقل في غير البشر، ومن انكر اثر العقل في غير البشر انكر العقل في ذاته[١]

والبرهان الرابع أوحى به بعض الملاحظات في ميتافيزيقا أرسطو ، وطورها القديس أوغسطين والقديس أنسلم، وهو يبدأ من درجات الكمال، ودرجات الخيرة، ودرجات الحقيقة ...الخ، وهي الدرجات التي نجدها فى موجودات هذا العالم، والتي تسمح لنا باصدار أحكام مقارنة مثل (هذا السلوك أكثر خيرية من ذاك)، وهذا الشىء أفضل من ذاك وهذا الشىء أجمل ذاك مفترضين أن هناك أساسا موضوعيا لمثل هذه الأحكام، ولما كان حد البرهان هو الوجود الذى يعلو ويتجاوز جميع الموضوعات الحسية، فمن الواضح أن الكمالات التي نتحدث عنها لا يمكن أن تكون الا تلك الكمالات التي يمكن توجد بذاتها، البرهان فى أساسه أفلاطوني وهو يفترض سلفا فكرة المشاركة، فالموجودات الحادثة لا تملك وجودها من ذاتها ولا خيريتها، ولا حقيقتها الانطولوجية وهي تتلقى كمالاتها وتتشارك فيها، ويعتمد البرهان على استخدام المبادئ التي سبق استخدامها في البراهين السابقة من الكمالات الخالصة، وهي ليست فى الواقع ابتعادا عن روح البراهين الأخرى، رغم مصدرها الأفلاطوني، واحدى الصعوبات الرئيسية بصددها، أن نبين أنها بالفعل درجات موضوعية من الوجود والكمال قبل أن يبين المرء أن هناك وجودا موجودا بالفعل وهو مطلق، وكمال موجود بذاته[٢].

البرهان الخامس: من جهة تدبير الأشياء فاننا نرى ان بعض الموجودات الخالية من المعرفة وهي الاجرام الطبيعية تفعل لغاية وهذا ظاهر من انها تفعل دائما او في الأكثر على نهج واحد الى ان تدرك النهاية في ذلك وبهذا يتضح انها لا تدرك الغاية اتفاقا بل قصدا، فاذا يوجد موجود عاقل يسدد جميع الأشياء الطبيعية الى الغاية وهذا الذي نسميه

١) ميخائيل ضومط، توما الأكويني دراسة ومختارات، دار الشرق، بيروت- لبنان، ط٤، ٢٠٠٥، ص ٧٤- ,٧٥

٢) فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٧١.

الله[١] ، فكما اننا عندما نلاحظ ترتيبا لأشياء مصنوعة نستنتج وجود صانع فني بوصفه العلة الكافية الوحيدة التي يمكن تصورها لمثل هذا الترتيب[٢].

والدليل الخامس يرجع الى افلاطون، وأخذ به أرسطو وأوغسطين، وهو الدليل الذي تستند اليه الكتب الدينية المقدسة، ويبدو أنه اشد البراهين المشروحة هنا احراجا لمن ينكرون وجود الله، ويستند هذا الدليل الى ما في الكون من نظام يدل بالضرورة على وجود الله، فمن جهة نرى بعض الكائنات الحية الخالية من المعرفة كالحيوانات السفلى، والنباتات تتجه في سلوكها نحو غاية وتحقق بذلك أهدافا، ويطرد ذلك اضطرادا يمتنع معه القول بأنه وليد الصدفة، ومن جهة أخرى نرى الكون في مجموعة منظما بحيث تتناسق أجزاءه فيما بينها لتحقيق غاية شاملة هي هذا النظام العالمي الدقيق، ولما كان وجود النظام دليلا على وجود المنظم العاقل، فلا تفسير لما نشاهده من غايات ونظام الا بوجود كائن عاقل يدبر الكون وهو الله[٣].

ويلاحظ أن هذا البرهان اذا نظرنا اليه من الناحية التاريخية وجدنا أنه برهان شائع عام يقول به الرجل الساذج كما يقول به الفيلسوف ونحن نجده أولا فى الكتب المقدسة بكل تفصيل ويكاد يكون أهم برهان تلجا اليه الكتب المقدسة ومن ناحية أخرى نجد أرسطو قد قال به اذ يقول : ان كل شيء في الطبيعة مرتب لغاية ويقول بوجود النظام فى العالم وكنظام لابد أن يكون له علة عاقلة هي التي أوجبت وجوده فلابد من القول اذن بعلة عاقلة هي أصل هذا النظام فالبرهان اذن من الناحية التاريخية يمكن أن يؤخذ من الكتب المقدسة على صورة بدائية ساذجة ويمكن أن يؤخذ من أرسطو على صورة منظمة ومن أفلاطون على أكثر نظاما وأدق تفصيلا[٤].

---

١) توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ص ٢٤.

٢) اتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، ت: امام عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩٦، ص ١٢٣.

٣) كامل محمد محمد عويضة ، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، ص ٤٣- ٤٤.

٤) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص ١٥٢- ١٥٣.

واذا اجيب على الأول بان الله لكونه في غاية الخيرية لا يسمح على نحو من الانحاء بوجود شر في اعماله لو يكن من تمام القدرة الشاملة والخيرية بحيث يخلص من الشر كما قال اوغسطينوس في كتاب الكيريدون ب١١ فاذا من مقاصد خيريته الغير المتناهية ان يسمح بوجود الشرور ويخلص منها خيرات، وعلى الثاني بانه لما كانت الطبيعة تفعل لغاية معينة بارشاد فاعل اعلى كان عن قصد ايضا يجب ان يسند الى علة اعلى غير العقل والارداة الانسانيين لانه يقبل التغيير والتخلف، وكل ما يقبل التحرك والتخلف فيجب ان يسند الى مبدأ اول غير متحرك وواجب لذاته(١).

ان السمة التي تميز أدلة الأكويني هي أنها تفترض جميعها العلية فاذا سقطت مصادرة العلية سقطت الأدلة كلها وتاريخ الفلسفة يشهد بوجود من أنكر مبدأ العلية فهيوم يرى أن هذا المبدأ لا يلزم من مبدأ عدم التناقض وأن لا تناقض في تصور بداية شئ دون رده الى علة فأن معنى العلة غير معنى البداية وليس متضمنا فيها وقبل هيوم لدينا نقولا دوتركمور من الأساتذه الاسميين بكلية الفنون بجامعة باريس فى القرن الرابع عشر الذى رأى أن كل دليل يذهب من معلول منظور الى علة غير منظورة هو دليل غير بين، والذي أخذ عن أوكام أن المعرفة اليقينية تستفاد من مصدرين فقط هما التجربة التى تظهرنا على الواقع والقياس اللمى المستند الى مبدأ عدم التناقض كما أن لدينا كذلك من الفلاسفة الاسلامين الباقلاني والغزالي اللذان يريان أن مبدأ العلية ليس مبدأ عقليا أو منطقيا وانما هو حادث وان كان السياق عندهما مختلف اذ قصد به أيجاد تفسير عقلاني للمعجزات بينما السياق عند الغربيين كان معرفيا، وأن هذه البراهين جميعها لاسيما البرهان الأول والبرهان الثاني تفترض أن الاشياء مرتبة ترتيبا تصاعديا ومتوقفة بعضها على بعض بحيث ان الابتداء من أدناها لابد ان يؤدى بنا فى نهاية المطاف الى مبدأ أول هو الله واجتماع هذه الأدلة معا يعطينا كما يقول يوسف كرم فكرة شاملة عن الله من حيث هو المحرك الأول الذي لا يتحرك والعلة الفاعلية الأولى والموجود الواجب لذاته والكامل مصدر كل كمال ومنظم العالم(٢).

---

١) توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ص ٣٤- ,٣٥

٢) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكوينى، ص ٣٠-٣١.

الطلب الثاني: اعتراضات القديس توما الأكويني لحجج الفلاسفة السابقة على وجود الله

(يوحنا الدمشقي، القديس أنسلم، القديس أوغسطين – **نماذج مختارة**)

يرى الأكويني أن مسألة الله من حيث هو مبدأ الأشياء جميعا وغايتها أيضا، لاسيما المخلوقات العاقلة ، هى أولى المسائل وأهمها ومسألة الله تقتضى النظر في موضوعات رئيسية ثلاثة، هي: وجود الله ، ثم صفاته السلبية التي تقول ما ليس هو، ثم صفاته الثبوتية التى تقول ما هو، الموضوع الأول وهو وجود الله يستلزم كذلك الاجابة على اسئلة ثلاثة : الأول : هل وجود الله بين بذاته، والثاني: هل يمكن اثبات وجود الله، والثالث: هل الله موجود ، وفي الاجابة عن السؤال الأول يبدأ الاكوينى بعرض الرأى الذي كان سائدا من أن وجود الله بين بذاته، وذلك ليرد على الحجج التي يسوقها أصحاب هذا الراى، ويقدم اجابته الخاصة عن هذا السؤال هذه الحجج هى ثلاث: الحجة الأولى: وهى حجة يوحنا الدمشقي بان معرفة الله بينة بذاتها، لأنها فطرية لدى الانسان كالمبادئ الأولى وتقول الحجة الثانية وهي حجة القديس أنسلم: أن من يعرف معنى اسم الله يعرف فى الحال ان الله موجود، لأن معنى أسم الله هو مالا يمكن أن نتصور أعظم منه، وما هو موجود بالفعل وفي الذهن أعظم مما هو موجود فى الذهن فقط، وبما أن معرفة اسم الله تعنى أنه موجود في الذهن، فيترتب على ذلك أن الله موجود بالفعل، والحجة الثالثة تقول أن وجود الحق بين بذاته، ومن ينكر وجود الحق يسلم بأن الحق معدوم واذا كان الحق معدوما أصبحت القضية القائلة بأن الحق معدوم قضية حقيقية واذا كان ثمة شيء حقيقي

فهو حق، ولكن الله هو الحق ذاته، فوجود الله بيين بذاته[١]، وفيما يلي عرضا لاعتراضات القديس توما الأكويني على أدلة الفلاسفة الذين سبقت ادلتهم ادلة الأكويني لاثبات وجود الله :

أ- القديس يوحنا الدمشقي:

ان براهين وجود الله عند توما براهين ضرورية منطقية يجب أن يعنى الفيلسوف اللاهوتي بعرضها بالتفصيل، لأن وجود الله ليس واضحا بذاته ولهذا يبدأ توما بأن ينقض اقوال أولئك الذين يزعمون أن وجود الله واضح بذاته، فنجد **أولا:** أن هناك طائفة على راسها يوحنا الدمشقي تقول بأن وجود الله فطري في الأنسان، ولكن هذا القول باطل، ذلك لأن من الناس من لا يقولون بوجود الله، **وثانيا:** لأن الموجود بالفطرة في نفس الانسان ليس وجود الله بل المبادئ التقليدية التي يستطيع أن ينتقل منها الى اثبات وجود الله، فليس الوجود اذن هو فطري، وانما المبادئ العقلية التي يستدل بها على وجوده[١].

يرى الأكوينى أنه يلزم عن حدود المعرفة البشرية أن دوائر الوجود التي يمكن للعقل ان يبلغ اليها لا تتخطى الحدود التي رسمها أرسطو، اي العالم الطبيعي المختتم بيثيولوجيا تعتبر أن الله هو المحرك الأول، فمن الخطأ الاعتقاد بأنه في الامكان معرفة وجود الله مباشرة وبالبداهة ، بدون المرور بالعالم الحسي، ومن الخطأ كذلك الاعتقاد بأنه لا سبيل الى البلوغ اليه الا بالايمان، وهذان الخطأن، على تعاكسهما يصدران عن مبدأ واحد: وهو بدوره مبدأ خاطئ يزعم اننا لا نستطيع أن نتكلم عن وجود الله الا اذا عرفنا أولا ماهيته، فبعضهم يقول (ومنهم القديس انسلم) انه مادام اسم الله يدل على موجود لا نستطيع ان نتصور ما هو اعظم منه، يلزم عن ذلك أن الله موجود، وهؤلاء ايضا هم الذين يقولون انه لما كان وجود الله هو هو ماهيته، فان وضع ماهية الله معناه وضعه موجودا، لكن بعضهم الآخر تأخذه الريبة في قوى العقل، ويرى أنه لا سبيل الى البلوغ لا

١) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكوينى، ص١٣-١٤.

١) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص ١٣٧.

الى ماهية الله ولا حتى الى دلالة أسم الله ويخلص من ذلك الى أن كل برهنة على وجوده مستحيلة[٢].

ب- القديس أنسلم: وتقول الحجة الثانية وهي حجة القديس أنسلم أن من يعرف معنى أسم الله يعرف في الحال ان الله موجود، لأن معنى أسم الله هو مالايمكن ان نتصور أعظم منه، وما هو موجود بالفعل وفي الذهن أعظم مما هو موجود في الذهن فقط وبما أن معرفة أسم الله تعنى أنه موجود في الذهن فيترتب على ذلك أن الله موجود بالفعل[٣].

لقد أنكر الأكويني الدليل الأنطولوجي الذي قال به أنسلم والمستمد من تعريف الله بأنه الكائن الذي لا يتصور كائن أعظم منه، فهذا الدليل كما لاحظ جونيلون بحق، يحتم تصور أن الله موجود، ولكنه لا يحتم أنه موجود خارج التصور، ويلاحظ أن توماس عندما بحث في ماهية الله خالف المبدأ الذي سار عليه بالنسبة لكل الموجودات الأخرى اذ يفرق فيها بين الماهية والوجود، باعتبارهما شيئين مختلفين، فالماهية هي الصفات اللازمة لادراك الشيء وتصوره في العقل، والوجود هو تحقق الشيء خارج العقل، ولكنه فيما يختص بالله، ذهب الى أننا لا نستطيع التمييز بين الوجود والماهية لانهما شيء واحد، وهذا يشبه ما استند اليه أنسلم في دليله الأنطولوجي[١].

ويظهر أن وجود الله بين بنفسه اذ انما يقال بين لنا بنفسه لما معرفته مركوزة فينا طبعا كما هو واضح في المبادئ الأولى ومعرفة وجود الله مركوزة طبعا في الجميع كما قال الدمشقي في كتاب الدين المستقيم ١ب٣، فاذا وجود الله بين بنفسه، وايضا ان الامور البينة بنفسها ما تعرف بمجرد تصور اطرافها وهذا ماأثبته الفيلسوف لمبادئ البرهان الاولى في كتاب البرهان ١ب٢ لانه متى علم ما الكل وما الجزء علم في الحال ان الله موجود لانه يراد به مالا يمكن تصور شيء أعظم منه، وما يوجد في الذهن وفي الخارج هو أعظم مما يوجد في الذهن فقط، فاذا لما كان يلزم من تصور اسم الله وجوده في الحال في الذهن يلزم ايضا وجوده في الخارج ، فاذا وجود الله بين نفسه[٢].

---

٢) اميل برهييه، تاريخ الفلسفة العصر الوسيط والنهضة، ص ١٧٧- ,١٧٨

٣) ميلاد زكى غالي، وآخرون، مشكلات فلسفية ، ص ١٥.

١) فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، من أوغسطين الى دانز سكوت، ص ٦٢- ٦٣.

٢) توما الأكوينى، كتاب الخلاصة اللاهوتية، ص ٢٨.

ت- القديس أوغسطين: والحجة الثالثة وهي حجة القديس أوغسطين، وايضا ان وجود الحق بين بنفسه فان من ينكر وجود الحق يسلم بعدم وجوده لانه اذا كان الحق معدوما فكونه معدوما حق، واذا كان شيء حقا لزم ان يكون الحق موجودا والله هو الحق بعينه كقوله في يو ١٤:٦ " انا الطريق والحق والحيوة" فاذا وجود الله بين بنفسه(٣).

ويرد القديس توما الاكويني على حجة القديس أوغسطين السالفة الذكر أنفا وعلى كل من يبرهن أن وجود الله واضح بذاته عن طريق فكرة الحقيقة بقوله اذا كان الأصل صحيحا فليست المقدمة الصغرى صحيحة من الناحية العقلية، ذلك أن قولنا أن الله هو الحقيقة هذا قول ليس مأخوذا من العقل بل من الوحي، فأوراق اعتماده مأخوذه من ميدان خارج نطاق العقول واذن فليس القول بوجود الله واضحا بذاته عقليا اذن، ومن هذا كله يستنتج توما أن القول بوجود الله ليس واضحا بذاته، بل كما ذكر موسى بن ميمون : ان هناك من الأسباب ما يجعل هذا القول عسيرا في النظر، اذ يلاحظ أولا أن من الناس من لا يستطيعون بعقولهم أن يصلوا الى ادراك الله، وثانيا يلاحظ وعلى أساس نظرية المعرفة عند أرسطو أن كل معرفة تنشأ من الحس، فلابد أن تكون نقطة الابتداء دائما هي الحس، والحس لا يستطيع أن يصل الى ادراك المعقول ادراكا تاما، والله معقول صرف(١).

ويضيف الأكويني في" الخلاصة ضد الامم" حجتين اخريين يعلل بهما القائلون بان الله بين بذاته: أولى هاتين الحجتين تقول ان المحمول فى قضية الله موجود هو عين الموضوع كقولنا الانسان هو الانسان وثاني هاتين الحجتين تقول بأن ما تعرف به جميع الأشياء الأخرى يكون معلوما بذاته، والله كذلك لأنه مثل الشمس نور الهي هو مبدا لكل معرفة ، ويرى الأكويني على العكس من هذه الحجج بأن الله ليس بينا بذاته، ولتوضيح

٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

١) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص ,١٣٩

٢) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكوينى، ص ,١٤

٣) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص ٤١٠.

ذلك يفرق بين ان يكون الشيء بينا بذاته فى نفسه وأن يكون بينا بذاته فى نفسه ولنا فكل قضية تكون بينه بذاتها اذا كان المحمول متضمنا فى الموضوع وهذه القضية ذاتها لا تكون بينة لنا اذا كنا نجهل ماهية الموضوع وماهية المحمول، وقضية الله موجود بينة بذاتها لأن المحمول هو عين الموضوع، لكن بما أننا لا نعرف ماهية الله فالقضية ليست بينة لنا ولابد من البرهنة عليها بما هو معلوم لدينا[٢].

ان توما الأكويني يقرر فى النهاية أن بعض الحقائق التي يتوصل اليها الانسان بالادراك العقلي الطبيعي تحتاج للتدعيم والكشف عن طريق وحي السماء، لأن الدلالة العقلية وحدها لا تكفي وامنا تحتاج لدعائم الايمان ووفقا لآراء توما الأكويني نجد هناك نوعين من أنواع الكشف الأول: هو الوحي والحقائق المعقولة التي لا تحتاج ولا تتطلب الشك على الرغم من أنها متبرهنة والثاني الكشف والحقائق العقلية التى يستطيع العقل البشري أن يبرهنها[٣].

واضح اذن أن الأكويني ينقض هذه الحجج لأنها تعتمد اعتمادا كليا على الايمان لا العقل لذلك يمضي الأكويني الى الاجابة عن السؤال الثاني، وهو هل يمكن اثبات وجود الله وهو يبدأ كعادته ببيان الاعتراضات التى كانت ترى أنه لا يمكن اثبات وجود الله بالبرهان العقلي، أولا لأن وجود الله موضوع ايمان بالغيبيات بينما البرهان العقلي ينصب على المعرفة العلمية وثانيا لأن البرهان على وجود الله عند أصحاب الاعتراضات يعتمد على ادراك ماهية الله، والمضي منها كحد أوسط الى القول بوجود الله ولكننا لا نعرف ماهية الله، وانما نعرف فقط ماليس هو، وثالثا لأن البرهان على وجود الله لا يكون الا استنادا الى آثاره أي الموجودات الطبيعية، لكن هذه الموجودات متناهية والله غير متناه فلا نسبية بينهما ولا يمكن بالتالي البرهنة على العلة ابتداء من المعلول مع اتعدام النسبة بينهما[١].

---

١) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكويني، ص ١٥- ١٦.

٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، ص ,١٤٤

٣) كامل محمد محمد عويضة، توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، ص٤١.

أجل ان من يعلم الله يعلم أنه سعادة الانسان وانه الموجود الأعظم، وأنه الحق بالذات، فان هذه التعريفات بينة بذاتها في أنفسها، ولكنها ليست بينة بذاتها لنا، فان كثيرين يعتبرون سعادة الانسان في الغنى وآخرين يعتبرونها في اللذة وغيرهم في غير ذلك ان كثيرين اعتقدوا أن الله جسم، وأي جسم تصورنا فيمكن تصور جسم أعظم منه وأخيرا اذا كان وجود الحق بالاجمال بينا بذاته فان وجود الحق الأول ليس كذلك ويضاف الى ما تقدم ان حجة القديس أنسلم تدور على تعريف اسم الله، ولكن الوجود اللازم من هذا التعريف وجود متصور فقط لا واقعي، فان الاعتقاد بالوجود لا يستتبع الوجود، فنحن هنا بازاء فكرة استمدها اصحاب الحجج المذكورة من الايمان، وظنوها بديهية في العقل، وحسبوا ان بامكاننا أن نبرهن على وجود الله ببرهان عالمي يتخذ الماهية أي التعريف حدا أوسط فيبين النتيجة بعلتها، ولكن ليس في مقدورنا ادراك ماهية الله في ذاتها(٢).

ولكنه وفيما يختص بالله، ذهب توما الأكويني الى اننا لا نستطيع التمييز بين وجود الله وماهيته لأنهما شيء واحد، وهذا يشبه ما استند اليه القديس أنسلم في دليله الأنطولوجي، ولكن رفض توماس لاستخدام تعريف الله في اثبات وجوده الى اعتقاده بان اثبات وجوده لا يكون ملزما للعقل الانساني الخالي من الايمان الا اذا بدا المحسوس وانتقل منه الى المعقول، ولذلك جمع خمسة براهين اختارها من بين ماسبق أن قال به أفلاطون وأرسطو والفارابي، وردده من بعدهم أوغسطين وابن سينا وابن ميمون وألبرت الأكبر، وكلها تعتمد على ماهو مشاهد ومحسوس ويبدأ به(٣).

فلا يبقى لنا سبيل سوى البرهان الاني الذي يمضي من الموجودات الطبيعية التي هي متقدمة في معرفتنا فيبلغ الى علتها، وعلى العموم يتوقف الايمان على المعرفة الطبيعية ان قيل: ان نؤمن بوحي الله يتعين من هذا البرهان الرجوع الى لحظة أولى بدأت فيها علية الله، كما يتوهم كثيرون بل الصعود في الآن الحاضر وفي كل آن الى علة أولى بغض النظر عن أزلية العالم أو حدوثه، ذلك بأن العالم يظهرنا على معلولات وعلل لها مترتبة بالذات، أي متوقف بعضها على بعض وأن العقل يدلنا على امتناع التداعي الى غير نهاية في سلسلة هذه العلل، والا لم يوجد المعلول فنقف عند علة أولى وثمة فرق بين العلل المترتبة بالذات والعلل المتعاقبة بالعرض: فليس يستحيل أن يتولد انسان من غير انسان الى غير نهاية اذا افترضنا أزلية العالم، وهذا تسلسل بالعرض، ولكن التسلسل

يستحيل لو كان توليد انسان متوقفا على انسان وعلى العناصر وعلى الشمس وهكذا الى مالا يتناهى[١].

ويمضي الأكويني ليدحض الاعتراضات بقوله ان وجود الله الذى نعرفه بالفطرة هو بمثابة تمهيد لعقائد الايمان لأن الايمان يتوقف على المعرفة العلمية وبموجب هذه المعرفة نعلم وجود الله ثم نؤمن من بعد بوحى الله، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع أن نؤمن بما يمكن معرفته علميا والبرهنة عليه وحين تمضي من المعلول الى العلة فى البرهنة على وجود الله لا ينبغى أن نتخذ الماهية حدا أوسط فان معرفة ماهية الله تأتي تالية على معرفة وجوده، بل نجعل الحد الأوسط هو مدلول الأسماء التى نستمدها من آثار الله ونخلعها عليه وأخيرا فان البرهان على وجود الله ابتداء من آثار المحسوسة لا يقصد الى تعريفنا بماهية الله على نحو كامل، وانما يقتصر الى اثبات وجود الله [٢].

وايضا ان الحد الاوسط في البرهان هو ما هو، ونحن ليس في قوتنا ان نعلم أن الله ماهو بل أنه ماليس هو فقط كما قال الدمشقي في كتاب الدين المستقيم فاذا ليس في قوتنا ان نبرهن على وجود الله، وايضا لو تبرهن وجود الله لم يكن ذلك الا بآثاره ولكن آثاره ليست معادلة له لانه غير متناه وهي متناهية ولا معادلة بين المتناهي وغير المتناهي فاذا لما كان لا يمكن ان يبرهن على العلة من المعلول الغير المعادل يظهر انه لا يمكن ان يبرهن على وجود الله، لكن يعارض ذلك قول الرسول في رو١:٢٠ " لان غير منظوراته قد ابصرت اذ ادركت بالمـبروات " وهذا لا يستقيم لو كان لا يمكن ان يبرهن على وجود الله من المبروآت لان اول ما يجب ان يتعقل في حق شيء أنه هل هو والجواب ان يقال ان البرهان قسمان احدهما مايكون بالعلة ويقال له لمي وهذا يكون بما متقدم مطلقا والثاني ما يكون بالمعلول ويقال له اني وهذا يكون بما هو متقدم بالنسبة الينا لانه متى كان معلول أوضح لنا من علته فاننا نتادى بالمعلول الى معرفة العلة ، وكل معلول يمكن ان يبرهن منه على وجود علته الخاصة اذا كانت معلولاتها أبين لنا منها

١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص ١٤٤.- ,١٤٥

٢) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكويني، ص ١٦.

لانه لما كانت المعلولات متوقفة على العلة فوجود المعلول يستلزم بالضرورة تقدم وجود العلة عليه ، فاذا لما كان وجود الله ليس بينا في نفسه لنا كان متبرهنا بآثاره البينة لنا[١].

اذا اجيب على الاول بان وجود الله ونحوه من الحقائق الالهية التي يمكن ادراكها بالفطرة الطبيعية كما قال الرسول في رو ١ ليست من عقائد الايمان بل موطئات لها لان الايمان يتوقف على المعرفة الطبيعية كما يتوقف على المعرفة الطبيعية كما تتوقف النعمة على الطبيعة والكمال على المستكمل وليس مع ذلك مانع من ان ما يمكن ان يتبرهن ويعلم في حد نفسه يقبل بسبيل الاعتقاد ممن ليس اهلا للبرهان، وعلى الثاني بانه متى تبرهت العلة من المعلول فلا بد من اخذ المعلول مكان حد العلة ليبرهن على وجود العلة وهذا يجري بالخصوص في حق الله اذ لابد في اثبات وجود شيء ان يوخذ مكان الحد الاوسط مدلول الاسم لا ما هو لان مسئلة ما هو لاحقة لمسئلة هل هو واسماء الله توخذ من آثاره ، فاذا متى برهنا على وجود الله من آثاره نقدر ان ناخذ مدلول اسم الله مكان الحد الاوسط، وعلى الثالث بان المعلولات الغير المعادلة للعلة لا يمكن ان تفيد معرفة تامة بالعلة الا انه يمكن مع ذلك ان يبرهن من كل معلول بين لنا على وجود العلة وهكذا يمكن ان يبرهن على وجود الله من آثاره وان تعذر علينا ان نعرفه بها بك بكنهه معرفة تامة [٢].

ويظهر ان الله ليس موجودا لانه متى كان احد الضدين غير متناه يلزم عدم الآخر بالكلية والله يراد به خير غير متناه فلو كان موجودا لم يكن شر لكن الشر موجود في العالم فاذا ليس الله موجودا، وايضا ما يمكن فعله بمبادئ قليلة فليس يفعل بمبادئ كثيرة، واذا قدر عدم وجود الله يظهر ان جميع الاشياء المشاهدة في العالم يمكن فعلها بمبادئ أخرى فتجعل الطبيعة مبدأ تستند اليه الطبيعيات والعقل الانساني او الارادة الانسانية مبدأ تستند اليه الاراديات فأذا ليس من حاجة الى اثبات الله[٣].

١) توما الأكوينى، كتاب الخلاصة اللاهوتية، ص ٣٠

٢) المصدر نفسه، ص ,٣١

٣) المصدر نفسه، ص ٣٢.

المطلب الثالث: نقد الفلاسفة لطرق الاستدلال الكونية عند توما الأكويني

قدم القديس توما الأكويني طرقا استدلالية خمسة لأثبات وجود الاله وقد سرت هذه الطرق فيما بين الغربيين طولا وعرضا منذ زمنه حتى الآن يتناولونها درسا ونقدا مابين مؤيد ومعارض لهذه الطرق، وفيما يخص البرهان أو المنهج الأول والأوضح من جهة الحركة، فمن الواضح أنه يتبع طريقة أرسطو في دليل الحركة تماما في هذا المنهج وقد علق يوسف كرم بعد بيانه لهذا الدليل فقال :" وليس المقصود الرجوع الى لحظة أولى بدأت فيها علة الله، كما يتوهم كثيرون بل الصعود في الآن الحاضر وفي كل آن الى علة أولى بغض النظر عن قدم العالم وحدوثه وهذا يعني أن البرهان يعتمد بالذات على علل مقتضاة بالذات للمعلول ومرتبة فيما بينها فهي متناهية العدد حتما والا لم يوجد هذا المعلول فهو هنا يجزم بأنها محدودة العدد قطعا ولكن المحدودية هذه يتأتى الجزم بها في جانب ذوات المحركات لا في نفس الحركات فهي لا نهاية لها في الماضي كما يقره أرسطو وابن رشد وغيرهما من أعلام الفلاسفة وملاحظته التي صرح فيها بأن هذا الدليل يكون بمعزل عن حدوث العالم وقدمه نعم هذا صحيح في بداية النظر ولكن بمجرد التسليم أن الاله محرك بالعلة لذاته للكون فان الناتج من الحجة أن العالم يجب أن يكون قديما وينتفي كونه حادثا ولذلك نرى الفلاسفة المخالفين للمتكلمين في هذه المسألة يجزمون بقدم العالم وأن هذه المسألة ما زالت محل النظر بين الفريقين كلا يحاول اقتناص الراهين على هواه(١).

ومن الصعب على مفكر العصر الحديث أن يعتبر هذه البراهين براهين بالمعنى المفهوم فهى ليست براهين بمعنى الكلمة لكننا نريد أن ننوه أن الخطأ هنا كان في عدم فهم الأكويني (اللامتناهى)، ومن الانصاف أن نذكر أنه ما من أحد من مفكرى عصره استطاع أن يفهم معنى (اللامتناهى) ونحن نجد فيلسوفا مثل Gopleston يشاطر الأكوينى رأيه بأن التسلسل التدريجي للأشياء لا يمكن أن يكون لا متناهيا في اعتماده

---

١) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة، منشورات الأصلين، ط١، ٢٠١٦، ص ١٨٧– ١٨٨.

على غيره ولكن هذه البراهين لا تسلم من النقد فعلى سبيل المثال في البرهان الأول يقرر الأكويني متأثرا بأرسطو وجود متحركات ثانوية لا يمكنها الحركة الا بفعل محرك أول بينما هذا المحرك الأول لا يحركه شيء فكيف بدأت حركة العالم اذن ؟ وما الذى يمنع افتراض وجود محرك سابق على هذا المحرك المسمى "المحرك الأول" اننا نعتقد أن الأكويني نفسه لا يستطيع الاجابة على التسأول الا اذا تبنى الاجابة أو الرد الذى أورده Williemومن قبله أرسطو بأن المحرك الأول يتحرك ولكن حركته فاعلة وليست غائية ولكن مثل هذه الاجابة لا يمكن التحقق منها لأنها تعتمد كليا عن الايمان (النقل)[١].

ومع تعظيم الأكويني لدليل الحركة على اثبات وجود الاله الا اننا نجد بعض الفلاسفة في تاريخ الاسلام كابن ملكا أنكروا حقية هذا الاستدلال فقد قال :" قد بان مما قيل في هذا الكتاب أن الاستدلال على المبدأ الأول من الحركة على ماقيل ليس بحق ولا هو الطريق الخاص الى معرفته" ثم شرع يبين وجه الانتقاد وخلاصته أن تصورهم للحركة يوجب أن يكون المحرك الدائم اذا كان جسما أن يكون لا متناهيا واذا كان وجود أبعاد مكانية لا نهاية لها باطلا فينبغي أن يكون المحرك الدائم غير جسم والتحريك لا يكون بطريق المماسة والمدافعة بين المحرك والمتحرك وهذا يكون بالنفس الحاصلة في ذلك الجسم ولكن بطريق الشوق فان كان المتحرك بحركته مشتاقا الى القرب من معشوقه فما بالنا ان الفلك الأعظم يتحرك حركة دورية لأن الحركة على الاستقامة يجب انقطاعها وعارضهم في قولهم : ان الزمان موقوف على الحركة اما من جهة السببية أو العرضية وقرر أن وجوده لا يتبع وجودها فالحركة في زمان والسكون في زمان وأيضا لما قالوا : ان الحركة تكون على سبيل العشق عارضهم بأن العاشق يطلب القرب في المكان من معشوقه فلم نراه يبتعد حينا ويقترب حينا ان كان معشوقه في تلك الجهة وقال لو قالوا : انه يتحرك لا متثال أمره وطاعته لكان أقرب من قولهم : انه يتحرك للعشق[٢].

١) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص ٤٣٦– ٤٣٧.

٢) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة ص ١٨٨– ١٨٩.

٣) عبد الكريم نوفان عبيدات، أدلة الفلاسفة على وجود الله (دراسة نقدية)، مجلة جامعة دمشق – المجلد التاسع عشر– العدد الأول ،٢٠٠٣، ص ٣٧٨.

ودليل المحرك والمتحرك لم يكن معتمدا عند بعض الفلاسفة ومنهم ابن سينا بل انه وجه النقد له باعتبار أن الحركة عنده قديمة لا تتناهى ومعتبرا أن هذا الطريق لأثبات وجود الله هو طريق العاجزين ومن أبرز المآخذ على هذا الدليل أن الحركة الموجودة في الكون لا تصدر عن المحرك الأول وهو الله باعتباره مؤثرا فيها وفاعلا لها بل انما تتم الحركات من باب تشبيه الموجودات المتحركة بالمحرك الأول كما يتشبه المؤتم بالامام والتلميذ بالأستاذ يدفعهما العشق والشوق لذلك ومن ثم لم يستطع أصحاب هذا الدليل اثبات المبدع المحدث للحركة المؤثر في كل شيء في الكون بل غاية ما أثبتوا وجود محرك أول مسلوب الفاعلية والتأثير [٣].

وعن البرهان او المنهج الثاني من جهة العلة المؤثرة وهنا نجد ايضا ان الأكويني ليس بخارج عن طريقة أرسطو وفلسفته وهو يبني هنا على احالة التسلسل في العلل، قال ابن ملكا واصفا طريقة العلة والمعلول للاهتداء الى وجود الواجب: " وهذا انما اهتدى به الحكماء القائلون بوجود العلة والمعلول معا في الزمان حتى امتنع عندهم ذهاب ذلك في علة قبل علة للمعلول الموجود الى غير نهاية وهي بأسرها مع المعلول في الزمان الواحد معا بل ويجب التناهي الى مايجب وجوده أولا وقيل حتى يوجد الثاني ثم الثالث حتى ينتهي الى المعلول المستدل منه وتكون القبلية في وجوب الوجود لا في الزمان فمن هذه الجهة حقت المعرفة بعلة العلل واول هذه الأوائل"[١].

أما دليل الممكن والواجب فقد قام عند الفلاسفة على التفرقة بين الممكن والواجب وجعلوا العالم من قبيل الممكن المحتاج الى علة والواجب هو الفاعل الذي لا علة لوجوده ثم استدل الفلاسفة بالممكن على الواجب من حيث حدوثه بعد أن لم يكن ومن حيث ثباته على الامكان واعتمد الفارابي وابن سينا كأشهر الفلاسفة الذين اعتمدوا دليل الممكن والواجب على مقدمتين ضروريتين هما : ابطال التسلسل في العلل والمعلولات الى مالا نهاية وكذا ابطال الدور وكلاهما يحكم العقل باستحالة وقوعه، وبطلان استدلال الفلاسفة بـــ" دليل الممكن والواجب على وجود الله من عدة وجوه:

---

١) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة ، ص ١٨٩– ١٩٠,

٢) عبد الكريم نوفان عبيدات، أدلة الفلاسفة على وجود الله (دراسة نقدية)، ص ٣٧٥.

١- أن دليلهم هذا يتناقض مع مذهبهم القائل بقدم العالم لأن القول بالقدم يمنع اثبات وجود الصانع للعالم اذ أن تجويز وجود موجودات متعاقبة الى ما لانهاية يوجب تجويز عدم انتهائها الى واجب الوجود مع كون كل منها علة للآخر.

٢- أن تقسيم الفلاسفة الموجود الى : واجب الوجود من قبل غيره وممكن الوجود من ذاته ثم جعل الممكن قديما أزليا ليس بصحيح بل الفلاسفة مضطرين في ذلك غاية الاضطراب.

٣- أقوال الفلاسفة في اثبات وجود الواجب لا يتحقق منها اثبات وجود الخالق المدبر، لأنها لا تفيد الا اثبات وجود واجب فقط ولا تفيد أن الواجب بذاته مباين للعالم الا بطريقة نفي الصفات وهذه الطريقة باطلة(٢).

وهذه النقطة محل تأمل فيما يبدو فان لقائل أن يقول : سلمنا أن هذا ممكن ولكن ما الدليل على أنه ينبغي أن يكون في زمان ما معدوما ولم لا يكون موجودا دائما لأنه في نفسه ممكن ولكنه بالنظر الى ارتباطه بعلته واجب الوجود لغيره وهذا هو السبب الذي من أجله قال الفلاسفة نحو ابن سينا بقدم العالم بالنظر لكونه معلولا للواجب مع كونه ممكنا في نفسه فالقول أنه ان كان ممكنا في ذاته ينبغي أن يكون لمجرد ذلك أن يكون معدوما في زمان ما، قد لا يسلم ولذلك فقد أشار يوسف كرم الى هذه النقطة فلم يذكر العدم، بل اكتفى بذكر احتمال كون الكائنات ممكنة في وقت ما ورتب على ذلك عدم وجودها الآن لو كانت بلا علة موجبة قال" فلو لم يكن هناك موجود واجب واجب وكانت جميع الكائنات ممكنة وقتا ما، لما كان يوجد شيء الآن ولن يوجد شيء أبدا " وهو أدق مما ذكره توماس على أن تقريره يستبطن الاعتماد على مبدأ أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه بلا مرجح ومبدأ أن الممكن متساو بالنسبة للوجود والعدم، وأكمل توماس " فاذا لو كان عدم الوجود ممكنا في جميع الأشياء للزم أنه لم يكن حينا ما شيء، ولو صح ذلك لم يكن الآن أيضا شيء لأن ماليس موجودا لا يبتدئ أن يوجد الا بشيء موجود فاذا لو لم يكن شيء موجودا لاستحال أن يبتدي شيء أن يوجد الا بشيء موجود فلم يكن الآن شيء وهذا بين البطلان فاذا ليست جميع الموجودات ممكنة بل لابد أن يكون في الأشياء شيء واجب والواجب اما واجب لذاته أو لغيره والتسلسل في الواجبات

لغيرها مستحيل كاستحالته في العلل المؤثرة فاذا لابد من اثبات شيء واجب لذاته ليس واجبا بعلة أخرى بل غيره واجب به وهذا ما يسميه الجميع الله [١].

وبين الغزالي بطلان دليل الفلاسفة من وجهين أثنى عليهما ابن تيمية : أحدهما أن غاية هذه الطريقة اثبات موجود واجب ولكن لا يمكن نفي كونه جسما من الأجسام الا بطريقهم قي التوحيد الذي مضمونه نفي الصفات وتلك مبناها على نفي التركيب والوجه الثاني أنها مبنية على ابطال علل ومعلومات لا نهاية لها وهذا لا يستقيم مع قول الفلاسفة بثبوت حوادث لا تتناهى واذا كان ابن سينا بصفته أشهر الفلاسفة الذين اعتمدوا على دليل الممكن والواجب قد جعل المفهوم من الممكن ماله علة فان القسمة لا تنتهي به الى ما أراد كما يقول ابن رشد اذ قسمة الموجود أولا الى مالا علة والى ما لا علة له ليس معروفا بنفسه أي ليس واضحا ولا يقينيا فان فهمنا منه الممكن الحقيقي أفضى الى ممكن ضروري ولم يفض الى ضروري لا علة له وان فهمنا من الممكن ما لا علة وهو ضروري لم يلزم عن ذلك أن ماله علة فله علة وأمكن أن يضع أن تلك لها علة وأن ذلك الى غير نهاية فلا ينتهي الأمر الى موجود لا علة له وهو ما يطلق عليه واجب الوجود[١].

واذا قسم ابن سينا الموجودات الى ممكن الوجود وواجب الوجود وأراد بالممكن ما له علة وبالواجب ما ليس له علة فانه لا يمكنه البرهنة على امتناع وجود علل لا نهاية لها اذ يترتب على وجودها غير متناهية أن تكون من الموجودات التي لا علة لها فتكون من جنس واجب الوجود فقول ابن سينا كما ابن رشد في غاية السقوط وذلك أن الممكن في ذاته وفي جوهره لا يمكن أن يعود ضروريا من قبل فاعله الا لو انقلبت طبيعة الممكن الى طبيعة الضروري فان قيل انما يعني قولنا: ممكنا باعتبار ذاته أي متى توهم فاعله مرتفعا ارتفع هو قلنا هذا الارتفاع مستحيل فمصدر خطأ ابن سينا كما يرى أبن رشد "

---

١) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة، ص ١٩٠-١٩١.

١) عبد الكريم نوفان عبيدات، أدلة الفلاسفة على وجود الله (دراسة نقدية)، ص ٣٧٥.

٢) المصدر نفسه، ص ,٣٧٦

٣) ماهر عبد القادر محمد ، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص ٤٣٨.

ذهابه الى أن واجب الوجود من غيرة ممكن الوجود في ذاته والممكن يحتاج الى واجب، وهذه الزيادة تعد فضلا وخطأ ومرد ذلك الى أن الواجب كيفما فرض ليس فيه امكان أصلا ولا يوجد شيء ذو طبيعة واحدة ويقال في تلك الطبيعة انها ممكنة من جهة واجبة من جهة فالواجب ليس فيه امكان أصلا لأن الممكن نقيض الواجب وانما الذي يمكن أن يوجد شيء واجب من جهة طبيعة ما ممكن من جهة طبيعة أخرى[٢].

ومن ثم فان برهان الممكن والواجب استخدمه الأكويني مقدمة توصل الى نتيجة يهدف اليها ولكنه لم يكن كل المقدمات التي قال بها الأكويني فاذا أخذنا مفهوم الله عند الأكويني بوصفه عملا محضا خالصا وقد يقول قائل بأن الله بوصفه عملا خالصا وبوصفه موجودا واجب الوجود بذاته وبوصفه المحرك الأول وباتصافه بالكمال المطلق وبكونه علة أولى للوجود ومصدرا للنظام فى الكون قد يقول ان هذه المفاهيم جميعا أسماء لله وأنهم جميعا ينطبقون على مادة واحدة وواحدة فقط، وأن هذه المفاهيم جميعا متماثلة قد تتفق مع هذا الزعم ببعض التحفظات البسيطة حيث ان مفهوم الله واجب بذاته يعد أكثر المفاهيم الباقية له[٣].

وأما المنهجان الأخيران: فالرابع يتعلق بملاحظة الاختلاف في درجات الكمال والنقص في الموجودات قال: " والأكثر والأقل انما يقالان على أمور مختلفة بحسب اختلافها في القرب الى ماهو غاية في شيء كما أن ما كان أقرب الى ماهو غاية في الحرارة فهو أخر فاذا من الأشياء ما هو غاية في الحقية والخيرية والشرف وهكذا غاية في الوجود لأن ماكان غاية في الحقة فهو غاية في الوجود" ثم قال " فاذا يوجد شيء هو علة لما في الموجودات من الوجود والخيرية وسائر الكمالات وهذا ما نسميه الله"، قال يوسف كرم :" وهذا الدليل أفلاطوني وقد صادفناه عند أوغسطين وانسلم وغيرهما ولكنه أرسطوطالي أيضا وقد جاء فيما بعد الطبيعة (م ٢ ف١) " ان الشيء الحاصل على طبيعة ما للغاية هو دائما مصدر الأشياء الأخرى في تلك الطبيعة، فما هو علة الحقيقة القائمة في الموجودات الاضافية هو الحق بالذات " وقد قيل ان هذه المقالة دخيلة على أرسطو وأخرى أن يكون كاتبها تلميذا أفلاطونيا[١].

---

١) سعيد عبد اللطيف فودة، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة دراسة مقارنة ، ص ,١٩٢

وأنتقد كثيرون الدليل الرابع دليل التدرج في الكمالات اذ صرحوا بأن هذا الدليل ينتقل من التصور أو الماهية الى الوجود على نحو ما فعل الأوغسطينيون في الدليل الوجودي للبرهنة على وجود الله لأن الأكويني ينتقل مما هو حق مطلق الى ماهو موجود مطلق، ومما هو نبل مطلق أو خير مطلق الى ما هو موجود مطلق لكن الحق تصور عقلي وليس وجودا كذلك الحال في الخير المطلق والنبل المطلق فكيف يحق للأكويني أن ينتقل من الماهية الى الوجود مع أننا رأيناه قد نقد بعنف الدليل الوجودي عند أنسلم لهذا اختلف الشراح في تفسيرهم لهذا الدليل وقيمته من الناحية التوماوية ولا سيما أن الأكويني يقول أن من الواجب أن نبدأ دائما من المحسوس، وان الانتقال من الماهية الى الوجود لا يمكن أن يتم عن طريق المعرفة من المحسوس وعلى كل حال فاننا نجد الأكويني صاحب نزعة أوغسطينية واضحة ومهما قيل في ايجاد مسوغ هذا عكس هذا لا يمكن أن ينكر أننا في هذه الحالة سننتقل من الماهية الى الوجود من مجرد ادراكنا للماهية(٢).

أما استدلال الفلاسفة بدليل " العناية والغاية " على وجود الله فيمكن القول : انه أصح أدلتهم وأسلمها من النقد، لكن يؤخذ على الكندي وابن رشد بصفتهما أبرز الفلاسفة الذين استدلوا بهذا الدليل سلوكهم الطريق الفلسفي في تقرير مقدمات هذا الدليل اذا أخذنا بالحسبان أن أرسطو من فلاسفة اليونان قد سلك هذا الدليل على وجود الله(٣).

ان النقد القوي ضد براهين الأكويني الخمسة يتمثل في أنها كلها متشابهة ان لم تكن متطابقة فهي في الحقيقة برهان واحد فقط عبر عنها الأكويني بخمس طرق مختلفة كذلك فان اهتمام الأكويني بالبحث عن وجود الشيء بالفعل وعدم اهتمامه بجوهر هذا الشيء وماهيته بحجة أن التأكد من وجوده هو الهدف الأساسي من البحث العقلي، انما هو أمر يؤخذ عليه ولأن معرفة وأدراك الوجود الفعلي للشيء لا يتاتى بغير ادراكنا أولا لماهيته

---

٢) أحسان علي عبد الأمير الحيدري، مشكلة اثبات وجود الله في الفلسفة المسيحية ابان العصر الوسيط، بحث نشر على الرابط : http/www. researchgate.net، ص ,١٨

٣) عبد الكريم نوفان عبيدات، أدلة الفلاسفة على وجود الله (دراسة نقدية)، ص ٣٧٩.

وجوهره كذلك فان الأكويني أهتم باثبات وجود الله فقط دون أن يحاول اثبات صفاته التي وصف بها في الانجيل(١).

ويذكر حميد رضا آيت اللهي أن البراهين الثلاثة التي طرحها الفيلسوف توما الأكويني وسائر العلماء الغربيين ابان القرون الوسطى على أساس نظريات العلماء المسلمين في اثبات وجود الله سبحانه وتعالى وفق متبينات الديانات التوحيدية يراد منها بشكل أساسي اثبات مسألة الخالقية له وهذا الأمر على خلاف براهين كلا من ارسطو وافلاطون وبما أن جميع فرضيات براهين علم الكونيات ترتكز في استنتاجها بشكل أساسي على مبادئ العلة وبالتحديد على مبادئ العلية الفاعلة لذا فان قيام توما الأكويني بطرح أحد البراهين المستلهمة من هذا السنخ العلي لا يجعل هذا الطرح متمايزا عن غيره والحقيقة أن الطرق الخمسة التي وضعها هذا الفيلسوف ليست سوى خمسة اساليب مختلفة تنصب في نتيجة واحدة الا وهي اثبات وجود الله تعالى وهي عرضة للتشكيك والنقص وهذا الأمر بكل تأكيد يقدح بالاستدلات التي اعتمد عليها في هذا الصدد قام توما الأكويني في الأسلوب الثالث من هذه الأساليب الخمسة ببيان الامكان الذي تتصف به الكائنات عن طريق دراسة وتحليل حدوثها ولكن على الرغم من كون الحدوث هو أحد الأسباب التي تجعل الكائنات تتصف بالامكان الا أن المناط الأساسي في ذلك هو افتقارها الى العلة أي أن الحدوث ليس هو المعيار للامكان وهذا ما اكده الحكيم ابن سينا ووضحه بأكمل وجه حيث اعتبر أن حاجة الممكنات الى واجب الوجود هي أساس كونها ممكنة الوجود لا أن حدوثها هو السبب في ذلك ومن هذا المنطلق فكل كائن يكون بحاجة دائمة لواجب الوجود ولا انقطاع لها بتاتا ولو للحظة واحدة وبهذا الاستدلال أثبت مبدأ العلية الالهية المبقية(٢).

واستدلال توما الأكويني الذي اعتبر فيه ممكن الوجود مفتقرا الى واجب الوجود هو في الحقيقة ناشئ من باب افتقار المعلول الى علته فهو يقول بما أن الكائنات الحادثة بحاجة الى علة في حدوثها فكذا هو الحال بالنسبة الى الكائنات الممكنة فهي مفتقرة الى علة

١) ميلاد ذكى غالي، الله في فلسفة القديس توما الاكويني، ص ,٤٣٧

٢) حميد رضا آيت اللهي، براهين علم الكونيات بحث مقارن بين الرؤيتين الغربية والاسلامية، مجلة الاستغراب المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت – لبنان، العدد ٧، ٢٠١٧، ص ٢٢٧– ٢٢٨.

ونظرا لكون السلسلة العلية لا يمكن أن تسير الى ما لا نهاية يثبت لنا واجب الوجود الذي هو العلة النهائية ومن البديهي أن هذا النمط في بيان العلية منشؤه الأساسي هو الاعتماد على التجربه وهو بكل تأكيد يختلف بشكل جذري عن العلية الحقيقية التي وضح الحكيم ابن سينا معالمها في أطار تحليله العقلي فالعلية التي تحدث عنها الفيلسوف توما الأكويني لا تتعدى كونها علية معدة وبالتالي فان حاجة المعلول اليها على نحو الضرورة تثبت عن طريق القول بمبدأ عدم انقطاع هذه الحاجة لدى الكائنات في ظل العالم التجريبي وهذا الأمر يتعارض تعارضا تاما مع الضرورة العقلية وتجدر الاشارة الى أن افتقار المولود الى والد هو مثال على هذا النسخ من العلية العلية المعدة وهذه هي أهم نقطة ضعف في براهين علم الكونيات وعلى الرغم من أن توما الأكويني اعتمد في استدلاله على مبدئي الامكان والوجوب لبرهنة مبتغاه الا أن برهانه في الحقيقة مطروح ضمن نطاق نظريات علم الكلام(١)

وبما أن العلماء الذين يطرحون برهان الامكان والوجوب يستدلون على كون واجب الوجود هو غاية الوجود ومنتهاها وأنه يتصف بالوجود على نحو الضرورة ويؤكدون في الحين ذاته ضرورة العلاقة بين العلة والمعلول لذا فبيان الضرورة في عالم الواقع على اساس المبادئ الفلسفية يعتبر أمرا هاما للغاية الفيلسوف توما الأكويني أكد فيه استحالة التسلسل في مختلف البراهين التي طرحها وقد اعتمد على هذه القاعدة أيضا في برهان علم الكون ولكن رغم تأثره بالحكيم ابن سينا على هذا الصعيد الأ انه لم يذكر استدلالات قويه لاثبات هذه الاستحالة اذن نظرا لكون تسلسل العلل المعدة ليس مستحيلا عقلا لذا فان البرهان الذي طرحه توما الأكويني ليس له القدرة على الصمود أمام الأطروحة القائلة بامكانية التسلسل ويبدو أن توما الأكويني قد استند في استدلاله على هذا الصعيد الى آراء الفارابي التي أكد فيها بطلان التسلسل كما يمكن اعتبار استدلاله هذا شبيها بقراءة ابن ميمون لبرهان الحكيم ابن سينا الفيلسوف توما الأكويني في براهينه التي طرحها حول

---

١) حميد رضا آيت اللهي، براهين علم الكونيات بحث مقارن بين الرؤيتين الغربية والاسلامية،ص ,٢٢٨

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

امكان الكائنات ومعلوليتها فساق دليلا لأجل اثبات وجود الله سبحانه وتعالى فقط أي أن برهنته ليست بشأن الكون بأسره كما هي الحال في البراهين التي طرحت لاحقا(٢).

ونستنتج مما سبق في الرؤية التوماوية لاثبات وجود الله أن الأكويني أراد اثبات وجود الله عن طريق أدلة عقلية خالصة بعيدة عن مصدر الوحي ومستنبطة من العالم الطبيعي كما نجد أن أدلته الخمسة على وجود الله تنضوي تحت راية الدليل الكوني (الكوسمولوجي) وتحتلف عن الدليل الوجودي في كونها حجة بعدية وليست قبلية، أي أنها تنطلق من التجربة والمشاهدة في العالم الخارجي وليست منحصرة في العالم العقلي، وهكذا نجد أن الأكويني حاول أن ينطلق من عملية اثبات وجود الله للوصول الى معرفة ماهية الله ، فبعد أن أثبت الأكويني وجود علة أولى انتهى الى أنها هي الموجود الذي لا نستطيع أن نتصور أعظم منه، والذي لا يمكننا تصوره غير موجود(١)

الخاتمة :

وفي ضوء ما تقدم يمكننا استخلاص النتائج التالية:

١) الدليل الأنطولوجي عند توما الأكويني يتم فيه الانتقال من مجرد تصور مفهوم الاله الى دعوى أن المفهوم يكفي عن طريق التحليل المنطقي للدلالة على الوجود الخارجي لله تعالى.

٢) ان المعرفة الطبيعية يجب أن تسبق الايمان اذ ينبغي البدء باثبات وجود الله لكي يتم الارتقاء الى الايمان الحقيقي فالايمان أمر يجاوز الطبيعة والبدء به محصور بزمن معين وبأناس معينين قادرين بالالهام أو سواه على أعتناق المبادئ الدينية مباشرة .

٣) التفرقة الواضحة بين العقل والايمان، الفلسفة من جهة نظر توما الأكويني لا يمكنها أن تقدم أدلة قاطعة لاثبات مبادئ المسيحية لأن العقل البشري يتقبل هذه المبادئ ولأعتقاده فقط انها من عند الله وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تفنيد مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين في الدين، والايمان يتوقف على معرفة اللاهوت الطبيعي والعقائد الايمانية لاتخضع لتمحيص العلم ولا لتجاربه لذلك فهي تبقى ضمن نطاق الايمان ولا

١) أحسان علي عبد الأمير الحيدري، مشكلة اثبات وجود الله في الفلسفة المسيحية ابان العصر الوسيط، ص ٢٦.

يعترف بها العلم كحقيقة من حقائقه وبما أن وجود الله هو عقيدة ايمانية فهو ليس بحقيقة علمية راهنة .

٤) ان توما الأكويني يقرر في النهاية العنصر المشترك بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التي تسندها السلطة المقدسة دون أن تقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وماهيته وقدرته.

٥) جاءت أدلة توما الأكويني الخمسة لأثبات وجود الله مستمدة منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص الا انها جميعها من الوجهة المنطقية برهان واحد يقوم على تقدم الفعل على القوة أو تقدم الكمال على النقص.

٦) أن بعض الحقائق التي يتوصل اليها الانسان بالادراك العقلي الطبيعي تحتاج للتدعيم والكشف عن طريق وحي السماء، لأن الدلالة العقلية وحدها لا تكفي وامنا تحتاج لدعائم الايمان.

٧) من المعلوم ان العقول الصحيحة والفطرة السليمة تقر بوجود الله خالقا للكون، وجميع الجهود التي بذلها الفلاسفة ضاعت في التدليل على أمر بديهي لا تكابر فيه الا العقول الفاسدة.

٨) حاول توما الأكويني كما حاول الكثيرون البرهان على وجود الله أنطلاقا من الايمان نحو العلم ثم الرجوع الى الايمان ومحاولته هذه بالنسبة لعصره كانت قوية وفاعلة والدليل بقاؤها حتى يومنا هذا ولكن اليوم تغيرت المسألة كليا أننا نرى شعوبا لا تأبه ابدا بوجود الله فهي لا يهمها وجوده أو عدمه وهنا تتغير طرق التخاطب مع مثل هذه الشعوب فمسألة الانسان اليوم أصعب بكثيير من ذلك الانسان الذي كان يقتنع لمجرد براهين فلسفية أو عقلية ولكن يبقى موضوع الايمان هو الأهم فهو لا يطلب لا براهين عقلية ولا تجريبية ولا حتى الفلسفية منها انه يبرر نفسه بنفسه.

٩) وفي النهاية نرجو أن نتعلم قبل كل شيء كيف نتقبل الرأي والرأي الآخر ولا نرفض أي فلسفة أو حتى فكرة لكونها تصدر عن شخص لا يماثلنا فخيرنا من تعّلم وعّلم والله من وراء القصد.

Evidence of the existence of God when Thomas Aquinas Comparative comparative study

Asst.Lec.hibaa bdulelah younus

Abstract

The aim of the research is to shed light on one of the most important important evideence or proofs of the philosopher Thomas Aquinas inferred his five logical arguments regarding the proof of the existence of God to his existence by pure mental evidence far from the source of revelation and derived from the natural world that his five evidence is under the banner of cosmological evidence (cosmological) and different from Existenial evidence in the fact that it a dimensional arguments and not tribal any starting from the experience and viewing in the outside world and not confined to the mental world Hence came the rejection of Thomas Aquinas ontological existential evidence presented by his predecessors on the existence of God explaining the error of evidence especially those that rely on lmagine Vahtam instead of cosmic evidence emanating from empirical data and ends with the substantiation of a bug being the duty of existence itself After that proved the existence of Aquinas first bug It ended up being the one that we cannot imagine greater than which we can not imagine does not exist Despite the opposition evidence was strong and effective in his time The evidence of its survival to this day .